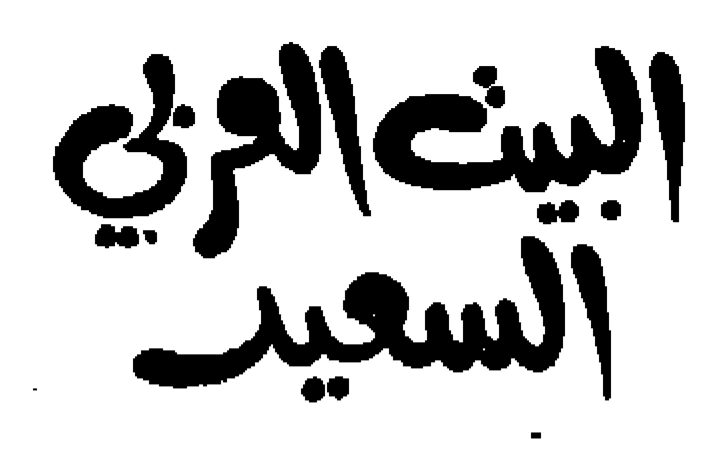
ديزي الأمير

البيت العربي السعيد

قصص



دار النضال


البيت العربي
السعيد

ديزي الأمير

البيت العربي السعيد



منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ ص ب: 6693 ـ 113

طبعة خامسة 1986

عمة رفيق

تطلعت من النافذة ، غابة خضراء غـامقة ، بقـايا من شمس لا تحيلها الى سواد . سكوت عميق يغطي الكـون برداء لا انثناء فيه .

عادت تجلس على الكرسي الهزاز ، حـركته فـاهتز هـو ولكنها هي لم تهتز . « ليس لكرسي اليوم زقزقته المعتادة . من أين تـأتي بـالصـوت في هـذا الصمت ؟ » . فتحت المذياع ، فارتفع الصـوت بالكـلام الغريب « مـاذا يقول المـذيع ؟ ومـاذا يعلق على هـذه الموسيقى الغـربية ؟ هـل تستطيع ان تجيبه الأصوات الأخرى ؟ أما من صوت عربي في هذه الغربة السحيقة ؟

الليلة آخر الليالي في هذا البلد الغريب . صباح اليـوم انتهت الحمّـامات المعـدنية ، وانتهى التـدليـك وأفـرغت

العاملة آخر وجبة من أكداس الطين الأسود على الانحاء المريضة من جسمها .

قال لها الطبيب ، عبر لغتيهما الغريبة المكسرة ، انها تحتاج الى راحة جسم وراحة فكر وراحة عواطف « راحة جسم ! راحة فكر ! وراحة عواطف ! ! » .

أجابته انها غير قادرة على توفير أي من هذه الراحات التي يصفها . سأل : ولم ؟ فبماذا تجيب ؟ وكيف تفهمه من هي ؟ هل تستطيع ان تعلن عن المهمات المعلقة على كتفيها ورأسها وذراعيها ؟ وهي التي حاولت ان تحجب شخصيتها الحقيقية في هذا البلد الغريب ؟ هي التي حاولت ان تتخفى فلا يعرف احد أنها هنا تريح جسدها وفكرها وعواطفها ؟

قال أخوها ، يوم قرر الطبيب في بلدها ، انها مرهقة الى حد الانهيار وبحاجة الى جو جديد ، الى منتجع لا تقوم فيه بأية مهمة أو عمل ، الى الاسترخاء والنوم وتجميد التفكير .

قال أخوها بعد تفكير طويل ودراسة عميقة : « ومن

سيساعدني ؟ » عاد الطبيب الغريب يسأل . ما تراها تعمل حتى أصيبت بكل هذا الاجهاد ؟ وهذا التوتر ؟ واحتارت ماذا تجيب ؟ هل تشرح طبيعة عملها ؟ هل تقول انها أخت أخيها ؟

لـو تعرف عليهـا السيـاح العـرب ، يقـول أخـوهـا ، فسيقـولـون تبـرجـزوا وهـم المنـاضلون ، تبـرجـزوا وهم المسؤولون ، تبرجزوا وهـم المكافحـون . « نعم هي أخت المناضل وهي أخت المسؤول وهي أخت المكـافح يجب ان لا تتبرجز . الحس بـالتعب برجـزة . وانهيار الجسـد أمام المسؤوليـات برجـزة . وضعف الأعصـاب أمـام الارهـاق والسهر برجزة » .

نـذر أخوهـا نفسه للقضيـة . رهن حياتـه لمسيرة هـذه القضيـة . كان منـدفعاً متحمسـاً منذ أول ادراكـه لهمـوم الـوطن وكانت هي أصغـر سناً منـه ، وهـو شـاب البيت الوحيد ، فتأثرت بأقوالـه وآمنت بأعمـاله وتحمست لقـوة شخصيته فصارت تـدعو لآرائـه وتكرر أقـواله . ظـروف القضية ، جعلتها كاتمة أسـراره وهي الشابـة الوحيـدة في البيت ، لم تدر الا وهي تخوض عملاً نضالياً كبيراً . ووجد

أخوها فيها رفيقة النضال فازدادت حماستها وشغلت كل أوقاتها بالعمل .

ولكن أخاها . ولكن أخاها وجد خلال كل هذا الاندفاع ومع كل هذا النضال وبجانب كل هذا العمل ، وجد رفيقة أخرى ، رفيقة من نوع آخر . رفيقة أخيها الجديدة صارت زوجته . دخلت حياته من بابها السهل . وصارت الزوجة المدللة « وبقيت هي . . هي أخته رفيقة النضال » .

الناس يعرفون هذا تماما ، يعرفون كاتمة أسراره ، هي وحدها كاتمة كل هذه الأسرار الكبيرة . ويعرفون ان وراء شخصيته الفذة الاخاذة اخته نذرا للقضية وانه يستشيرها في كل تصريحاته وخططه .

ولأن الناس ينتظرون من المرأة ان تكون أكثر كلاماً من الرجال صاروا يلاحقونها أين وجدوها بأسئلة مباشرة أو غير مباشرة ، ولكنها نجحت في الامتحان وصمدت أمام اغراء السؤال ، حتى أصبح مريدو أخيها ومؤيدوه يسمونها أخت الرجال ، « منحوها شرف الاعتراف بأخوتهم » !

هي ، كانت تدري ان القضية أهم من أية مغريات

بشرية ، وقاطعت لأجل هذا عوالم النساء . فلا ارتياد لصالونات حلاقة أو دار أزياء أو تجول في الأسواق أو زيارات صباحية . « هذه عوالم تضييع الوقت وهي تدري أهمية الوقت في العمل » .

واستغربت ان ترى أخاها وقد وضعت زوجته ولدا وصار ينادى أبا رفيق ، استغربت انه اصبح يمضي جزءاً من وقته الثمين في ملاعبة ابنه وازدادت المسؤوليات عليها . أما هي فصارت تنادى عمة رفيق منحوها حق عمومة رفيق ولم تعد تنادى أخت الرجال ، صار الرجال طفلاً صغيراً » .

« لو كانت كنيتها أما لرفيق ؟ فكرة لم تساورها من قبل » كل ما تعرفه من عروض الزواج ، خطبتها في أول صباها لرجل لم تره الا من خلال الهدايا التي قدمتها لها أمه وأخته ثم . . . قرر أبوها ان الخطيب لا يناسبها فأرجعت الهدايا . وتساءلت لم ناسبها ؟ ولم لم يعد يناسبها ؟ لم يجب أبوها أبداً عن هذا السؤال لا من خلال تساؤلها لنفسها ولا من خلال استفسارها من أمها : أبوك يرى ان هذا هو الأفضل .

« ماذا جرى لتلك الهدايا ؟ من يلبسها الآن ؟ » . .

حين يعود أخوها من أسفاره يحمل لزوجته ولرفيق ولبقية الأولاد هدايا . وهي . . هي يحمل لها عدداً جديداً من الكتب السياسية .

ذات مرة رأت زوجة أخيها في جلسة مع زائراتها واحداهن تكشف لها المستقبل في فنجان القهوة . . فتقدمت لها بفنجانها . وفي المساء . . تساءل أخوها باستنكار : أهذا هو مستواها الفكري ؟ أتسف هي الى حد انتظار معرفة المستقبل من فنجان قهوة ؟ نحن نصنع المستقبل ، نحن الذين نبنيه ، فهل نلجأ الى فنجان يخبرنا عما يجب ان نعمل ، عما سيحدث ؟

وتساءلت ما كان يحدث لو وقفت امام المرآة تتبرج كما تفعل زوجة أخيها ؟ قال جدها : انها زوجة ويجب ان تتزين لزوجها لترضيه ، أما انت فهل ترضين ان تتزيني لأصدقاء أخيك ؟ وماذا يقول الناس لو اهتم بك أحد هؤلاء ؟ ولو . . ولو . . لا سمح الله ، قال أخوها ، أحبك واحد منهم ، فهذا معناه انني اشركتك في مهمتنا الوطنية لأجد لك زوجا . انت محصنة ضد كل هذا بتصرفك

الرصين وكفاك فخرا انك اخت الرجال . . . وضحك فرحاً : أليس كذلك يا عمة رفيق ؟

عادت تطل من النافذة ، إزدادت الغابة المحيطة بالفندق عتمة . غابت الشمس من مدة . مرت فترة الغروب وجاء الليل الطويل . هذا آخر ليلة لها في هذا البلد الغريب . حاذرت فيه ان ترى وتشاهد ويتعرف عليها . هذه آخر ليلة في هذا البلد الغريب ولم تتعرف هي على الليل فيه . شاهدت الشوارع المؤدية للمصح في النهار وشاهدت هناك غرفة التدليك بالأيدي والتدليك بالماء وغرفة الطين « ماذا رأت في هذا البلد الغريب غير صور مائه المعدني ؟ » . . « وغرفتها ماذا فيها غير جدرانها وسقفها ونافذتها الوحيدة تطل على غابة خضراء صباحاً ، معتمة مساء ، سوداء ليلا ، موحشة وقت الأرق » .

دق جرس المطعم يعلن ساعة تناول العشاء ، وهي عادة لا تنزل الى القاعة بل تطلب العشاء الى غرفتها « اليوم ، هذه الليلة هي الأخيرة في هذا البلد الغريب . ستنزل الى المطعم وتختار مائدة منزوية بعيدة عن نظرات الفضوليين » .

في طريقها الى المطعم شاهـدت غرفـة مضاءة محشـورة بالناس . غرفة تراها لأول مرة مكتوب على بابهـا بالضـوء الأحمر (بار) بكل اللغات التي يمكن ان تميزها .

كانت الغرفة موجودة ومقفلة ساعات النهار . الليل عالم ثان لم تتعرف عليه طوال هذه الأسابيع « فهل أراحها قضاء الليالي الطويلة في غرفتها تطالع الكتب السياسية ؟ » عـالم المطعم جديد . فكيف حرمته كل هذه الليالي ؟ مـا الذي أغراها بتناول العشاء في غرفتها ؟ ما الذي يخيفها كل هذا الخـوف من الليل ؟ وهي المنـاضلة اخت الرجـال ، عمة رفيق ؟ والنهـار هل كـانت أكـثر جـرأة فيـه ؟ أنسيت انها تتنـاول غـذاءهـا في مـطعم (المصـح) المملوء بـالشيـوخ والعجزة والمرضى ؟ وفطورها ؟ مقصـور على المـاء المعدني يصلها من حنفية الشرب الطالعة في غرفتها ؟

تذكرت كل هذا . لم تصدق انها هي نفسها أمضت هذه الأسابيع الثلاثة الطوال وفق برنامـج طبي يزعم انـه يريحها جسديا وفكـريا ونفسيـا ! « ثلاثـة أسابيـع طوال ، ستعـود بعدهـا الى الوطن . الى القضيـة . الى العمـل . تواصل الليل فيه بالنهار وتساوى فيه الناس نساء ورجالا .

ورددت بصوت عال رجال ونساء رجال ونساء « أنسيت انها أخت الرجال ، انها عمة رفيق ؟ » .

« ما معنى ان لاتنادى باسمها ؟ أبعد كل هـذا النضال ونكـران الـذات والتضحيـة لم تتـوصـل حتى ان تُسمَّى باسمها ؟ » .

أتـراه شـرفـا ان لا تكـون امـرأة فقط ؟ لم هي أخت الـرجال ؟ ولم هي عمـة طفل وليست . . وليست زوجـة رجل ؟ » .

كانت تأكل الحلوى ، القسم الأخير من وجبـة العشاء ولا تذكر ما تناولت قبله من أصناف .

تأملت من حولها . . هناك طاولات عليها رجل وأخرى عليهـا نسـاء وثـالثـة عليهـا من الجنسـين « وهي . . هي وحدها لا تدري الى أي من الجنسين تنتمي » .

وعـادت تتأمـل الموائـد، ترى هـل يأكـل الناس نفس الأصناف التي قدمت لها ؟ على بعض الموائد أقداح نبيذ . العـالم الـذي لم تـدر أنـه مـوجـود حقيقـة . وانـه مبـاح للجنسين . فتشت بعينيها عن النادل . ستطلب منه قدح

نبيذ . تسمرت على الكرسي وعيناها تبحثان عنه . وجدته يتنقل بين الموائد ، يحاور جالسيها يتبادل معهم الحديث وتعلو أحيانا ضحكات وكذلك . . قهقهات !!

مر بها النادل مسرعا . لم يلتفت اليها . لم يحس بوجودها . « وهي التي تخفت طوال هذه الأسابيع الثلاثة ! هي التي حجبت نفسها كل هذه السنوات التي لا تريد ان تتذكر كيلا يتبعها فضول الآخرين » . لا يعيرها هذا النادل ، حتى هذا النادل ، اهتمام التفاته ؟!

صوت ارتفع . اكتشفت بعد لحظة انه صوتها وانها تنادي . وجاءها النادل . طلبت منه كأس نبيذ . تطلع اليها بتعجب واستنكار . عادت تكرر طلبها قال : الآن وبعد انتهاء العشاء ؟ نحن في مطعم ملحق بالمصح وقد انتهى وقت تقديم النبيذ . هناك ، على يمينك وانت خارجة من الباب الرئيسي ، البار ، وهو يقدم الخمور الى مطلع الفجر.

ثم تركها قبل ان يسمع تعليقها . « أيتحداها هذا النادل ؟ أيدري من هي ؟ اذا كانت قد تخفت فليس معنى ذلك انها مهملة . هناك في بلدها ألف شخص وشخص

يتمنون لو يتبادلون الحديث معها ، لـو يمكنهم ان يعرفـوا اخبارها ، بعض شؤونها ، بعض القضايا عن . . عن . . عن أخيها » .

ولأول مـرة وجدت نفسهـا تسأل : أخـوها نـذر نفسه للقضيـة ، وهي ؟ هي نـذرت نفسهـا لمن ؟ للقضيـة ام لأخيها ؟ .

النادل امامها يقدم لها الفاتورة لتوقع عليها . كان هذا اعـلانا واضحـا عن انتهاء فتـرة العشاء . قـامت وسارت باعتزاز ، بثقتها المعروفة عنها في بلدها . غدا ستكـون في الـوطن ، في بلدها الـذي يعتز بهـا وينتظر منهـا ان تتفـوه بكلمة .

قربت من المصعد واذا بـه موجـود ، واقـف ، فارغ ، صامت . دخلته وقبل ان تمد أصبعها تكبس زر طابقها ، عـادت ففتحت الباب واتجهت صـوب الكلمـة المكتـوبـة بالضوء الأحمر المتعددة اللغات .

كان البار مزدحماً والدخان يملأ سماءه والموسيقى تنبعث لا تدري من أين .

مشت بين الموائد المشغولة . ليس من يرشدها الى طاولة شاغرة . هناك في أقصى الزاية طاولة صغيرة سارت اليها وجلست على كرسي . « بقي الآخر فارغاً فأحست بارتياح . لا يعرفها أحد » .

« هل تطلب كأس نبيذ ؟ هل تطلبه أحمر أم أبيض ؟ أيهما يعلن عن نفسه بجرأة ؟ » .

تطلعت حواليها . لا أحد ينظر اليها . ستطلب ما تريد ، لا احد ينظر اليها « هل هذا مريح ؟ » .

الضوء الخافت وسحب الدخان ستغطيها فلا يراها احد « أتريد ألا يراها احد ؟ » .

هل يصيبها دوار اذا تناولت نبيذا ؟ واذا أصابها الدوار « من يسندها ؟ » واذا سندت هل يسمع الناس هناك في بلدها هذا الخبر ؟

سمعت شخصاً يقف ويده تشير الى الكرسي الفارغ . أشارت برأسها ان تفضل . فتفضل رجل تشبه ملامحه ملامح أبناء بلدها فأدارت وجهها عنه . كانت صفحة الخمور أمامها في قائمة المشروبات فأغلقتها بسرعة .

« أصابع يدها المعروفة تشبه أصابع الرجال » فسحبتها . رفعت رأسها ، كان جليسها يتأمل كل الآخرين . كان يدير رأسه هنا وهناك بخط سير متدرج فتتبعت عينيه . وقعت على فتاة فارعة الطول شقراء . جميلة الوجه تحمل صينية عليها كؤوس وقناني .

تأملت وجهه ، فيه لهفة وشوق . قربت فتاة البار من مائدة مجاورة لهما وقبل ان تضع صينيتها هناك وصلت اليهما وضحكت للجليس ثم عادت الى الطاولة الأخرى تنزل الصينية وتفتح القناني وتسكب المشروب .

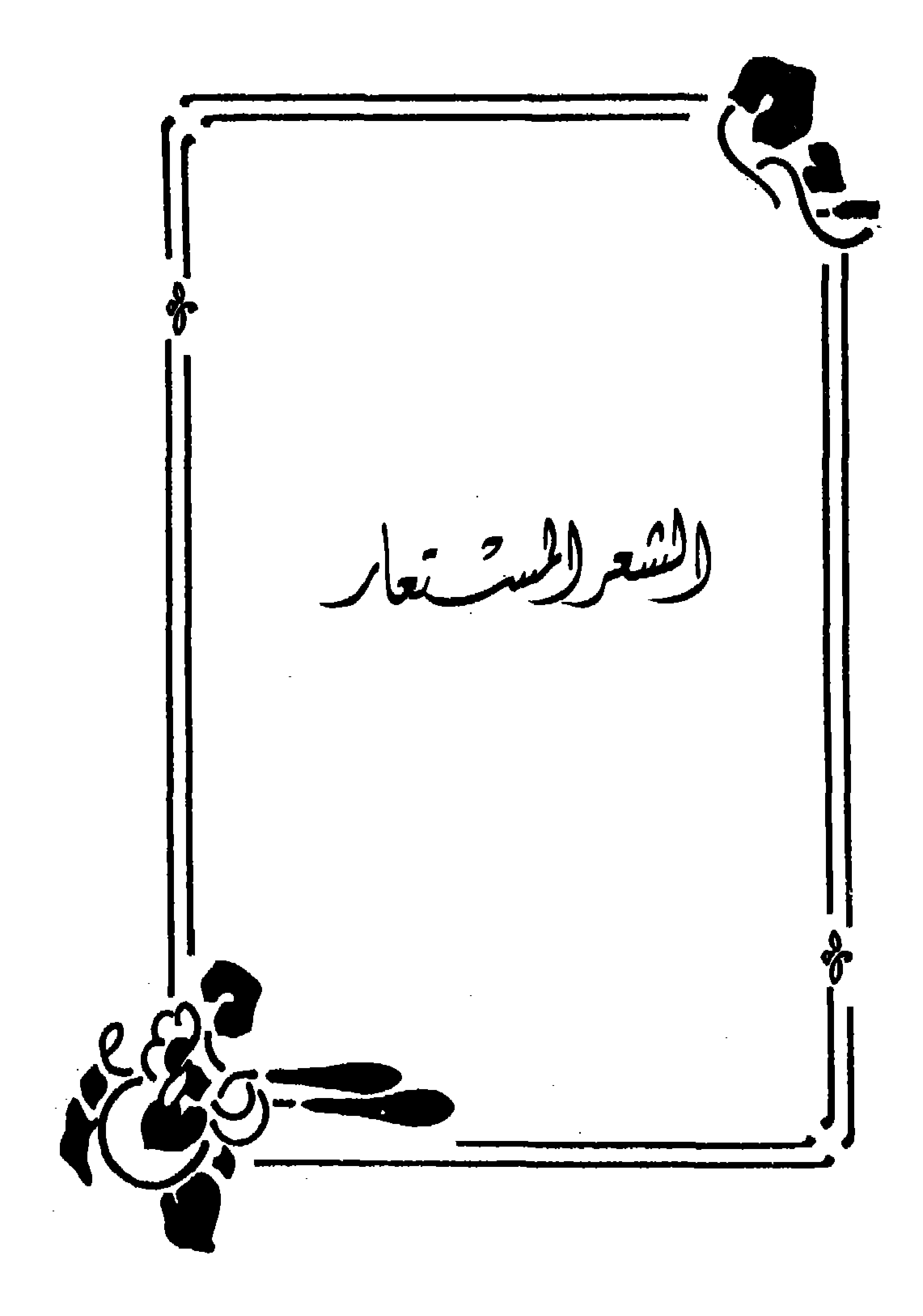
عادت اليهما فتاة البار وأسرت في اذن الجليس كلمة . كلمة لم تفهمها ، كلمة بلغة أهل هذا البلد الغريب . جليسها غريب ، هذا أفضل « ولكن . . لم هذا أفضل ؟ » عينا الجليس تمشيان مع فتاة البار وفتاة البار تجد لحظات بل لحظة او اقل لتصل الى الجليس تسر في أذنه كلمة غريبة جديدة .

في جولتها التالية وقفت فتاة البار لحظات وفي جولتها الأخرى دقيقة . . ثم دقائق . وهنا تطلع الجليس اليها . . اليها هي ، تأملها . . تأمل الطاولة الفارغة أمامها

« وتساءلت عيناه هل انتهيت من شرابك ؟ أحنت رأسها : أن نعم » .

المصعد لا يزال هناك موجـوداً واقفا فـارغا ولكنـه كان يتكلم .

1973



الشعر المستعار

تبـدلت اشارة الضـوء فتوقفت . السيـارة التي أمامهـا سيارة تحمل لوحة دبلوماسية . السيارة التي أمامها تسوقها سيدة . سيدة ؟ سيدة ؟ ما وظيفتها ؟ ما رتبتهـا ؟ اتراهـا عربية . شكلها يوحي أنها أجنبية . ارتفع رأس صغـير ، طفل يجلس بجوار سائقة السيارة الدبلوماسية .

اذن فـالسيـدة متـزوجـة وهي تـركب سيـارة زوجهـا الدبلوماسي . فهي نفسها لا تستحق اللوحة الدبلوماسيـة لأنها تابعة لرجل يحمل هذا اللقب .

أما هي ففتاة عربية تحمل جوازا دبلومـاسيا . حصلت عليه لأنها تستحقه . لم يتوسط لها أب ولا أخ ولا زوج ما شفع لها هو مقدرتها لهذه الـوظيفة . بلدهـا العربي يقـدر الفتيات ويعطيهن ما يستحققن دون وساطة رجل .

وهذه التي أمامها تزهو بسيارتها ؟ تزهو بمكانتها ؟ وما فضلها ما دام زوجها هو صاحب المكانة ؟ وهي ، كأية سيدة أخرى ، جنت محصول ما زرعه رجل . لو كانت زوجة وزير او زوجة فلاح فما فضلها في هذا ؟ أما هي فتعبت وجهدت حتى نالت وظيفتها بعرق جبينها .

وتذكرت كل من كان يمكن ان تتزوج . كانوا سيعطونها اسما جديدا ووضعا بيتيا جديدا ومسؤوليات جديدة ولكن كل هذه الأمور تشبه ما تربحه كل متزوجة . أما هي فهي تحمل اسما خاصا بها ، مكانة خاصة بها ، مسؤولية خاصة بها .

حين تقدم للآخرين لا يقال عنها ابنة فلان أو زوجة فلان او ام فلان . انما يذكرون اسمها وهو وحده كاف . انه اسم معروف استحق مديحاً لما يحمل من أثر معروف لدى الناس. السيارة التي خلفها تزعق فيها ان تمشي ، الضوء التالي أخضر من مدة ، وزوجة الدبلوماسي مشت بسيارتها . طبعا عليها ان تسرع فزوجها ينتظرها وكذلك بقية الأولاد ، ومسؤوليات البيت . هي كذلك يجب ان تسرع لا ارتباطا بشخص ولكن تنفيذا لموعد تسجيل قصة

لـلاذاعة وبعـد ذلك عليهـا ان تحضر الجلسة الثـالثـة من المؤتمر . عليها ان تنقد الحوار الذي سمعته أمس . كانت السيـدة مندوبـة الهند دقيقـة جدا في حـديثها وعميقـة أما منـدوب سيـلان فلم يستـطع الـوصــول الى عمق نقـاط السيدة . هذا القـرن عصر السيدات . لقـد تفوقن عـلى الـرجل . ولكن الغـريب ان مندوبـة الهند متـزوجة كيف استطاعت ان تجد وقتا تترك فيه بيتها ومسؤولياتها لتأتي الى هنا تناقش وتحـاضر ؟ مندوبـة الفلبين الجميلة جـدا والتي ترتدي آخر صرعات الأزياء لم يكن شكلها يوحي بثقافتها العميقة ولكنها ما ان بدأت الحديث حتى نسي السامعـون جمالها ورأوا عمقها ومنطقها وثقافتها .

كادت ان تتعدى الضـوء الأحمر فـوقفت وتراجعت الى الـوراء قليـلا . ابتسم لهـا الشـرطي دون ان يعلق بشيء مدت رأسها تقول : أنا متأسفة لقد أخطأت وكـدت أعبر الضوء الأحمر . ضحك قائلا : للسيدات قوانين خاصة ، فألجمها جوابه غضبا . ما هـذه الحقوق التي للسيـدات ؟ السماح لهن بمخالفة تعاليم السير؟ اهذا هـو حق المرأة ؟ وبقية الحقوق التي لم تكسبها بأنوثتها ؟ هي لا تـريد هـذا

الحق المهين لأنها عاملة جيدة ، عاملة متفوقة حتى على الرجال .

على جانبي الطريق محلات تعلن عن بضاعتها النسوية بتشويق كبير وحشود من النساء تدخل وتخرج . الساعة الحادية عشرة صباحا . الا عمل لهاته النسوة غير التنقل بين مكان الى آخر ؟ من رأته منهن يحمل رزما وعلبا كثيرة . كيف يرضين بهدر الأموال على أشياء تافهة كهذه ؟ والبيت ؟ اذا كن ربات بيوت حقا الا يستحق ذاك البيت وقتا ومالا يصرف عليه بدل تضييعهما على الثياب والشعر والتنقل من مقهى ، الى بيت ، الى رصيف . . . ؟

وصلت دار الاذاعة ودخلت قاعة التسجيل . كان هناك رجلٌ لا يزال يسجل حديثه ، وفي مكان الانتظار كان رجلان آخران جالسين . قام أحدهما وقدم كرسيه لها فشكرته معتذرة بأنها تفضل الوقوف فاستنكر هذا منها أيجلس هو ، وهو الرجل ، وتبقى هي ، الفتاة ، واقفة ؟ أجابته وما الخطأ في هذا ألسنا في عصر تتساوى فيه المرأة والرجل ؟ قال أنا أقدم لك الكرسي لأمرين لأنك فتاة ولمكانتك الأدبية التي احترمها كثيرا . أحست كل زهو

الـدنيا يمـلأها فعـادت تشكـره وذهبت الى أقصى القـاعـة تسحب كرسيا فارغا من بعيد . فركض أحد العمال يأتيها بالكرسي وتساءلت فيما بينها هل يأتي لها العامل بـالكرسي لأنها فتاة وهو رجل ام لأنه كذلك تعرف اليها . . . ؟

انتهى الرجل الـذي كان يسجـل حديثـه فتقدم مـدير التسجيل منها يدعوها للدخول الى الاستديو . فتطلعت الى الرجلين اللذين كانا قبلها قال المدير : السيدات أولا . . كادت تقول : لم أعد أحس أني فتاة . انا أعمل أكـثر من الرجال وأقوم بواجبات تضاهي او تفوق وظائفهم ولكنهـا سكتت . فـطالما رددت هـذه العبـارات أمـام الأصـدقـاء والصديقات المقربين والمقربات واعتبر حديثها نكتة بـدأوا يتناقلونها .

أنهت تسجيـل القصة فقـال لهـا المشـرف عـلى تضبيط الصوت انها أجادت الالقـاء فهو لم يكـرر لها أو يعيـد أي مقطع . حتى الرجال أنفسهم لا يسجلون أحاديثهم بهـذه الجودة . تمنت ان تقول له أتدري ما هي وظيفتي الجديدة ؟ وظيفة يتمناها ألف رجل ولا يستطيع الحصـول عليها فـما

أهمية ان اجيد تسجيل قصة نسبة الى ما وصلت اليه . . . ؟

عند الباب وفي الشارع كانت سيارة قد وقفت لصق سيارتها ولم تترك لها الا مكانا ضيقا للخروج . تأملت السيارتين . قال لها رجل كان يراقبها هل تريدين المساعدة . . . ؟ اخراج سيارتك من هذه الحفرة يحتاج مجهود رجل . فاستفزها كلامه وشكرته باقتضاب وبدأت تبذل جهدا تحاول اخفاءه لتخرج سيارتها دون ان تخدشها او تخدش السيارة الملتصقة بها . تطلعت بانتصار الى الرجل الواقف وهي تبتعد عن نظراته .

لا تدري كيف وصلت الى هنا . الطريق الذي تسير فيه مقفل ، طريق يتوقف ولا منفذ له ، الوقت لديها ضيق وهنا خمس دقائق ضاعت وخمس اخرى ستضيع بالعودة واستدارت لتعود . الشارع ضيق والاستدارة غير سهلة تقدمت قليلا وتأخرت ثم عادت تتقدم والتفكير بضيق الوقت يشغلها . بقيت استدارة بسيطة ويصبح اتجاه السيارة صحيحا . انتهت هذه المرحلة فاسترخت على المقعد وبدأت العودة وما كادت تسير بضعة أمتار حتى

سمعت صوت ارتطام شديد واذا بسيارتها تكاد تنقلب ورجلان يحيطان بسيارتها وهما يشتمان ويصرخان بألفاظ وأصوات لم تتعود أذنها سماعها .

ذهلت للمفاجأة فصرخ فيها أحد الرجلين : انزلي من سيارتك وتأملي ماذا فعلت بسيارتنا . النساء لا يصلحن لقيادة السيارة فلم لا يتركن هذا العمل لأصحابه ؟ للرجال ؟ وجدت نفسها تهبط وتتأمل مؤخرة السيارة . كانت سيارتها مضروبة بقوة والصندوق الخلفي مهشم تماما وكذلك كان الجانب الأمامي الأيمن من سيارة الرجلين . الضربة من الخلف ليست هي مسؤولة عنها . هكذا علموها في قوانين قيادة السيارات . والسيارة قد خرجت من شارع أيسر ، اذن فالطريق لها ، وليست لسيارة الرجلين . ولكن قبل ان تفتح فمها لتفهمهما خطأهما امتلأ الشارع بالناس ، كل يدلي برأيه ويصرخ برفيقه او بها او بالرجلين ، لا تدري ، كان الصراخ والتعليقات المفهومة وغير المفهومة تتوالى من كل صوب . فتحت نوافذ البيوت وامتدت الرؤوس تستطلع وهرع الناس من دكاكينهم يتفرجون .

صاح أحد الرجلين لا داعي لكل هذا الصراخ أعطينا ثمن تصليح سيارتنا فنسكت . أيقظتها جملته هذه من الكابوس الذي حولها . الحق عليهما ويريدان منها العكس ؟ ماذا تقول ؟ الحق علي أنا من تظنني . . ؟ وكيف تحسبني بهذه البلاهة . . ؟ تقدم أحد المتفرجين قائلا أنت سيدة وهم رجال لن تستطيعي اقناعهم امنحيهم ما تستطيعين فيسكتون فصرخت فيه : ومن قال اني أريدهم ان يسكتوا فليقولوا ما يريدون أنا أدري ان الحق بجانبي وهما المعتديان . وتدخل كل الحضور هذا من باب دكانه ، وذاك من رأسه الممدود من النافذة ، وآخر صار قربها . وخامس دخل سيارتها . وسادس اقتحم الازدحام ليصل اليها . لم تعد ترى احد او تسمع شيئا . امتلأت عيناها وأذناها بضجيج لا تميزه . ولكن يدا امتدت وامسكت بكتفها . وكادت هي ان تمد كفها تدفع اليد لو لم تسمع صوتا أنثويا يقول : تعالي مالك وكل هؤلاء الرجال تناقشينهم تعالي ، هنا تلفون اتصلي بأبيك او أخيك او زوجك اتصلي بأحد رجال بيتك ، ليأتي ويسكت هذه الأصوات ، أنت فتاة و لن تستطيعي اقناعهم . انجذبت

لليد وسارت نحو صالون حلاقة نسائية وامسكت سماعة التلفون تدير الأقراص . . ولكن من تكلم . . لا أب ولا أخ ولا زوج ولا رجل في بيتها تستنجد به .. تطلعت الى صاحبة الصالون تريد الاعتراف لها بهذا ولكنها خجلت . ماذا ؟ أتقول أنا رجل أقوم بأعمال الرجال وأضاهيهم وأتفوق عليهم ؟. وما ينفع ان تقول هذا وضجة الرجال في الخارج تزداد . ثم تذكرت ان هناك شركة تأمين ، وأن هناك خبراء للشركة ، ولكن كيف تخرج دفتر أرقام التلفونات من حقيبتها امام صاحبة الصالون ؟. المفروض انها تحفظ رقم تلفون أبيها أو أخيها أو زوجها .

قالت لا استطيع تركيز أفكاري ، علي ان أفتش عن الأرقام . لم يكن الخبير الأول في مكتبه فأدارت رقم الخبير التالي وطلبته بالحاح ان يأتي بسرعة سألها عن عنوان مكان الحادث فنظرت الى صاحبة الصالون تستنجد بها ، فأمسكت هذه بالسماعة وقالت تخاطب الطرف الثاني يا سيدي أختك عندي في صالون حلاقة يقع في . . ليست أختك المعذرة أقصد زوجتكم .

وتمنت هي ، لو يرضى الخبير ، ويزعم انه احد أقاربها .

ولا تدري بماذا أجاب لأن صاحبة الصالون لم تقترح قرابة جديدة .

بقيت في مكانها تنتظر وصول الخبير وتزاحمت أمامها الصور . . تجلس وراء المكتب تكتب التقارير ، تحضر الندوات تناقش في الاجتماعات . تكتب لهذه المجلة قصة وتسجل لهذه الاذاعة حديثا . حولها في الصالون عدد من السيدات هذه تحت منشف الشعر . أصابعها تعتني بها عاملة الأظافر . وتلك يسرح لها الحلاق شعرها وهي تطلب اليه ان يرفعه الى أعلى وأعلى وتمد ساقها تدلكها عاملة أظافر القدم . في الخزانة أمامها كومة من الشعر المستعار بمقاييس وألوان شتى . انسحبت ستارة وبدا لها وجه امرأة مستلقية وقناع كثيف من الكريم الأبيض يعلو وجهها . مدت عينيها الى أبعد ولكن صوت رجل يحييها بقوة وصل الى أذنيها . كان رجل يقف أمامها . رجل طويل عريض الكتفين قدم نفسه لها بأنه خبير حوادث السيارات . هرعت معه الى الخارج سلمته مفتاح السيارة والأوراق الخاصة بملكيتها واجازة قيادتها . مع الأوراق كانت هويتها الدبلوماسية تأملتها وأرجعتها الى حقيبتها

وأوقفت أول سيارة تاكسي وطلبت منها ان توصلها الى سوق الثياب الجاهزة .

طلبت من البائعة ان تعرض عليها فستانا من آخر طراز وحين سألتها البائعة أهو لك . . أجابتْ أريده صرعة في الزي الحديث .

كان في المخزن قسم للشعر المستعار ، أضافت وأريد كذلك شعرا مستعارا . عادت البائعة تسأل ما النوع الذي تريدين . . أريد شعرا مستعارا . . أريد (باروكة) شعر نسائية لا رجالية .

1970

القادم الجديد

ماذا في عيني امها ؟ اهو الذي اعتادت الخوف منه ؟ لم تلتق نظراتهما طوال النهار . من منهما تحاشت الأخرى ؟

على زعم جدتها فان عمر امها اربعون عاما ، وهي صالحة لانجاب عشرة اطفال آخرين .

حين ولد الطفل التاسع وارتفعت زغاريد الجارات مبشرة الأب بذكر جديد ، قررت هي الا تتحمد لأمها بالسلامة ، وامتنعت عن رؤية الوليد وبعد مرور سبعة أيام انذرت امها ، نعم انذرتها بأنها يجب ان تمتنع عن الانجاب والا فهي غير مسؤولة عن الانفاق ، ستسافر ، ستهاجر ، ستنتحر ، ولكن شجاعة الأم لم تكن كافية لاخبار الأب ، وجاء اطفال ثلاثة خلال خمس سنوات .

كم كانت تحس بتفوق حين دخلت المدرسة ، وكم

احسست بتخاذل حين تركتها لتعمل . الأسرة كبرت وزادت الحاجة الى النفقات وهي كبرى الأولاد ، ودخل الأب لا يكفي لاعالة الجميع .

الأخ الكبير ، اشغله النضال ، كان يتمنى ويرجو ويرغب ان يكمل دراسته ، ان يجد عملا ولكن العمل السياسي كان الأسلوب الأسرع ، على حد تعبيره ، الى الانفراج المادي . غدا يتغير النظام وتأتي المساواة العادلة ويتعلم المستغلون درسا جذريا في أسلوب معاملة الآخرين . ولكن هذا الغد لم يأت ، جاء شرطي يقبض على الأخ بتهمة الاشتراك في تنظيم يعمل على قلب نظام الحكم ، وحين بهت الأخ من هذه التهمة وأقسم انه لم يعمل غير قوله هذا الكلام لأمه يطمئنها على المستقبل ، اكدت الأم انها لم تقل هذا لغير الجارات . . ثم . . تذكرت ان احد ابناء هاته الجارات يعمل في الشرطة . وهكذا وبجملة عابرة اصطفيت بها جارة يعتقل الابن رهن التحقيق ويعذب ويحاول كسب اعتراف منه بحق زملائه في التنظيم السري . . .

ويخرج الابن بعد اشهر مكسور الساق فاقدا احدى

عينيه ضعيف بصر الأخرى ، ويـزداد عدد الـذين تعيلهم الأخت .

الأخوان التاليان كانا اكثر حذرا من اخيهما الكبير ، فلم يبـوحا بمـا يعملان . وفعـلا بدءا النشـاط بصورة سـريـة اوجبت غيابهما عن البيت معظم الوقت الا في الأحايين التي تضيق فيها ايديهما عن الرغيف .

وهكذا فالبيت الذي يعمل لأجله الأب والابنة الكبرى يزيد عدد سكانه بفضل الأب وتتحمـل الابنة همـوم هذه الزيادة .

اليـوم نـظرات الأم لا تـريـد ان تلتقي بعيني ابنتهـا ، أخجلا من طارىء جديد ينتـظرهم ؟ أكان يجب ان تنفـذ تهديدها لتوقف الأم ؟ ولكن هل لديها الجرأة الكافية لتهدد أباها ؟ لـو نفذت وعيـدها وتـركت البيت اما كـان ابوهـا يلحق بها يذبحها ويشرب من دمها افتخارا امام المتفرجين وهو يغسل عار ابنته ؟ او كان اخواها المناضـلان يشفعان لها ؟ ولو كان اخوها الأكبر قادرا على السير اما كان لحق بها وجرها من شعرها الى حظيرة البيت!؟ . للحيوانات علف يومي يأتي بـه أصحاب الحيـوانات المستغلة وهي . . هي

المستغلة تأتي بالعلف اليومي لها وللآخرين . .

للحيـوانات علف يـومي يأتي بـه اصحاب الحيـوانات المستغلة وهي . . هي المستغلة تـأتي بـالعلف اليـومي لهـا وللآخرين .

سيزداد العلف لو كان ما تقرأه في عيني امها المسبلتـين طفلا جديداً .

اخواتها الصغريات يوبخهن الأب اذا رأى واحدة تقف امام المرآة . هو يتعب هو يشقى وهن . . هن يتصببن امام المرآة .

التهديد بالقتل عبارة تصحو عليها الفتيات وينمن على فـارس احلام ينتشلهن وهي . . هي تصحـو راكضـة الى العمل وتنـام مسترقة السمع الى أبويها ، خائفة من قادم جـديـد تخشى ان يـزداد عـدد المنـاضلين ويـزداد عـدد العاملات .

أحد الأخوان ، لم تعد تدري ما تسلسله تماما بين أفراد الأسـرة أعلن الحـرب ، أطلق شعـر رأسـه ولحيتـه وشق طريقاً خاصاً لحياته ، يأتي البيت في وقت متأخـر يلتهم ما

خبأته له الأم ، ويعلو صراخ الأب موبخا مندداً مهدداً الأم فتذهب تسترضيه ، وتخشى الأخت الكبرى ان يكون ثمن الاسترضاء قادماً جديداً .

ما الذي في عيني امها تخبئه ؟

اتـذهب اليها تستـوضحها ؟ اتـطلب منها مكـاشفتهـا بصراحة وجرأة ؟

ولو قالت لها ما تخشى وقوعه ، كيف تجابه ذلك ؟

احد اخوانها استطاع الافلات من حيطان البيت وسافر بعيـداً وهو يكتب لهم انـه آت قريبـا . سيأتي ومعـه ثروة تـريحهم . كانـوا ينتظرون عـودته بعـد اشهـر . وطـالت الاشهر الى سنوات والوعود تصل متباعدة او متقاربة ، وفي ساعات العتمة اليائسة كانت تصـدق رسائل اخيها . تجبر نفسهـا عـلى تصـديقهـا ، وحـين يتبجـح الأب بـالابن الغـائب ، تـدرك حينـذاك عمق الـوهم الـذي يخلقـون ويعيشون ، وينتظرون .

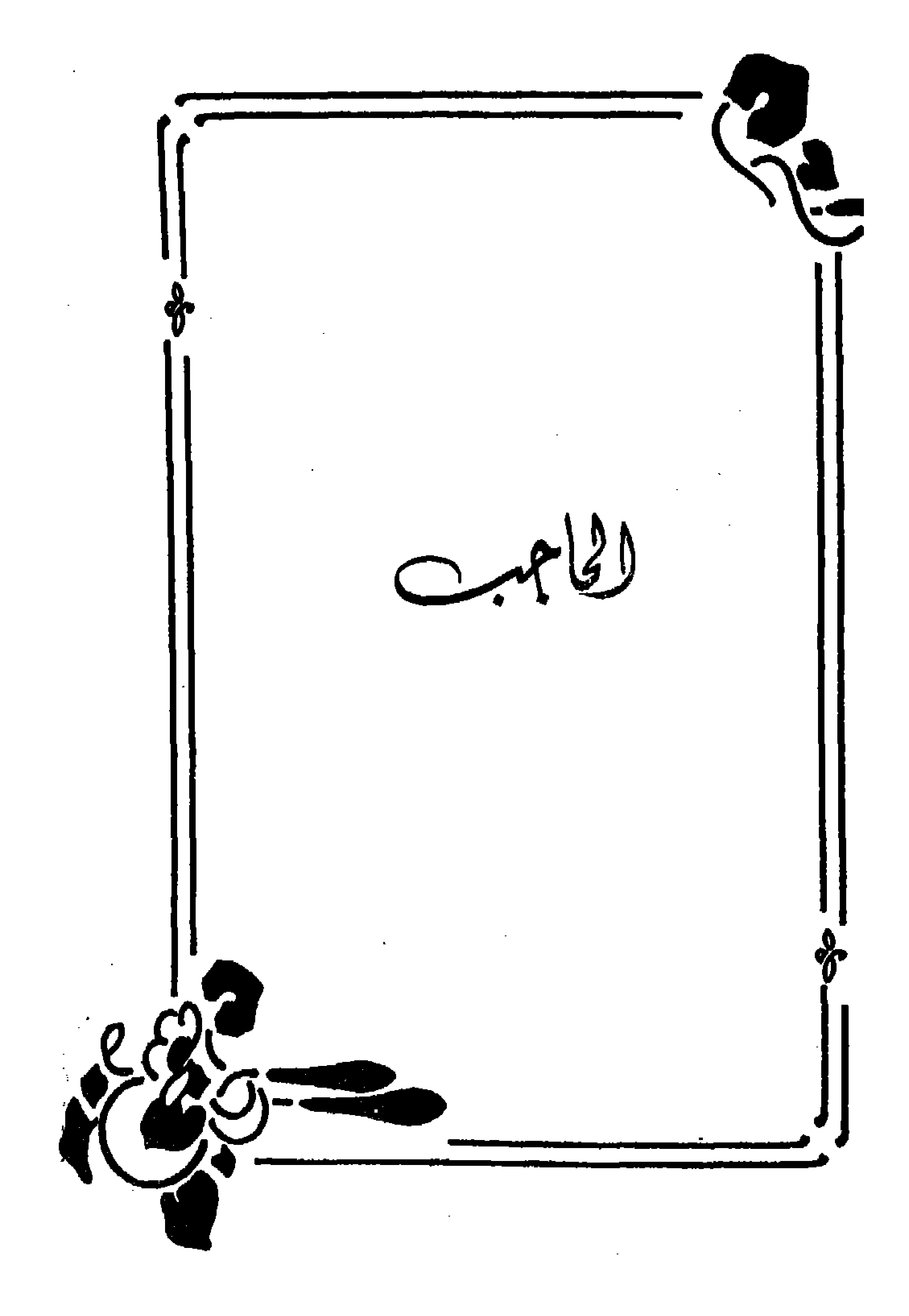
كانت تتمنى احيانا ان تقرأ ما هو غـير مسطور في تلك الرسائل ، كي تخلص امها وأباها من وهم الآمال .

ماذا تخبىء عينا امها ؟ هذا الطفل البريء لو كان قادما حقيقة فهي تريد اغتيالـه . . . واكتشفت فجأة انها تكـره كل من حولها .

انها تريد ان تحب فلم يقسرونها على الكراهية ؟

قـــامت الى امهـا ، امسكت ذراعهـــا ، ادارت اليهـا وجهها . عينا الأم منكستان . تطلعت اليها صرخت فيها (انظري الي ، حدقي في وجهي ، اخبريني الحقيقة . مـا هذا الذي تخبئينه في عينيك ؟ يجب ان اعرف الحقيقة ، انا اول من يجب ان يعرفها فان نتائجها لن تقع الا عـلي . . اعتـرفي . . اعترفي . . كفـاك جبنا) وبمـذلـة رفعت الأم رأسها ونظرت في عيني ابنتها وقالت بخوف (لست انا التي رضيت بطالب يد اختك ، ابوك هو الذي وافق) .

1973



الحاجب

وصل الليل ، أحست بعتمتـه قبل ان تـراه ، قبل ان يطرق نوافذها وبـابها . فقـد طرقت اصـوات التلفــون رأسها ، تطلب منها الصديقات الاهتمام بنفسها ، فالليل عـلى وشك ان يـأتي . لتحكم غلق النوافـذ، غلق الباب بالمزلاج الداخلي ، لتتذكر انها وحدها ، وهي امرأة وحيدة واللصوص يطمحون دائما بالسطو على بيوت كبيتها .

هكـذا وفي كل نهايـة نهار ، وقبل ان يصلهـا الليـل ، تذكرها الصديقات بقرب وصوله ، بوحدتهـا ، بالاخـطار التي قد تتعرض لها .

لم تكن عتمــة الليـل تخيفهــا ، ولا وهــج الـشمس يبهجهـا . مرت عتمـات كثيرة وجـاءت تـوهجات كثيـرة وهي . . هي تـذهب صباحـا الى عملها وتعـود مسـاء .

الساعة . . لا تسأل عقاربها عن سبب سيرها ومرورها عن الأرقام .

الليلة كانت العتمة اشد . أصاب عطب اسلاك الكهرباء في بيتها ، وهذا أمر قد اعتادته ، ولكن كل حيلها لحل مشكلة انقطاع النور لم تفلح الليلة . فانتظرت . الصباح سيأتي ، الشمس لا شك طالعة ولا أمر جديدا آتيا ملحا يتطلب النور .

تعرف ممرات بيتها المنيرة والمعتمة ، المطبخ والحمام ، غرفتها ، سريرها . مشجب ثيابها خزانتها تصل يدها اليها دون الاستعانة بدليل ولو كان ضوئيا .

الليلة طال الليل ، عهدها به يستفيق ابكر ولم تستطع ان تسبقه فانتظرته وطال انتظارها قبل ان يمضي ، وانضمت ليلة اخرى الى الليالي ، واشرقت شمس اخرى اعادت لها وجهها المستعار حملته معها الى العمل وتركت السيارة على الطريق ، فالدولاب الذي ينعطب دون ان ينذرها برغبته لم يعودها على طريقة تصليحه مع كثرة ما باح بوقاحة عن طلبه التوقف .

نظرة المدير اليها قالت انها تأخرت وحين رأى الحاجب الاسى في عينيهـا سألهـا عن مكان وقـوف سيارتهـا واخـذ مفاتيحها . كـادت تقبله ولكن شفاههـا كانت اكـثر وعيا فانسحبت متمتمة عبارات شكر .

الملفات تأتي اليها وتروح والأوراق البيضاء تسود وتمزق او تمتـد وتـرتب . ينقضي نهار جـديـد ويـأتي الغـروب فتسألها زميلة ان تمضي فترة الوحشة عندهـا. وحين تـأتي فترة العتمة ، ويحـل الظلام ، لـو رغب دولاب سيارة في اعـلان رفضـه السـير مـاذا تقـول للجيـران ؟ كيف تفسر للحارس حق الآلة في الحرد ؟

تقدم لها زميلة سيجارة ، تمد يدها ثم تتراجع ، تلاحظ محبس الزواج في اصبعها فتعتذر تقول ان لديها عـدداً من الـولاعات في حـاجة لاصـلاح تجيب الـزميلة ان تصليـح الـولاعات عمـل خاص بـالرجـال . هاتيهـا معـك غـدا يصلحها زوجي المعتاد على الأمر .

يأتي الغد فتقول للحاجب : (هذه ولاعة لا احتـاجها صلحهـا واستعملها) . هـل تراهـا دفعت لـه بعض مـا يستحق ؟ سحبت المخدة من تحت رأسها ولكن الماضي لم

ينسحب . رأت البيت مملوءاً صغاراً وكباراً ومتوسطي العمر .

لم كان الموت غير راحم لها في اختطافهم ؟

كانت تشكو دائما من الضجيج وتتمنى لو تنام في غرفة مستقلة ، تفتح الضوء ساعة تشاء ، او تطفئه وتستطيع الاستمتاع بالسكون .

اليوم تتمنى لو كانت لا تستطيع القيام بكل هذه الأمور مستقلة .

اضاءت المصباح ، امسكت جريدة ، قلبتها . خفف صوت الورق من السكون . اطفأت الضوء ، اشعلته ، اشعلت سيجارة . ملأت الغرفة دخانا فلم يأت أبوها يستوضح من يجرؤ على التدخين . فتحت المذياع والتلفزيون معا ، أسكتتهما معا . لم تحس بالاستقلال . انتظرت ، لم يحدث شيء ايمكن ان تمر كل هذه الليالي ويأتي كل صباح ولا يأتي شيء ؟

الليلة التالية جاء الشيء . احست غثيانا ولم تدر انها كانت تنتقل في العتمة بين غرفتها والحمام ولكنها ادركت

ان الدوار يعيقها عن الذهاب الى العمل . اخبرت المـدير عن سبب تغيبها واتعبها الـوصول الى التلفـون تجيب عن استفسار الزميلات وتمنياتهن لها بالشفاء .

طبيبها قالت زوجته انه في خفاره في المستشفى وتطوعت ان تنام عندها اذا احتاجتها ثم استدركت ، اذا وجدت من ينام عند الأطفال .

قبل ذهابها للعمل مرت على الطبيب . ورحبت بعودتها الزميلات والصديقات وسألها الحاجب هل يصدق لها على التقرير الطبي كما يفعل للآخرين ؟

الليلة قررت الا تستكين للوجع ولكنه لم يأتها ، سهرت تنتـظره تـأملت وجههـا في المـرآة كـانت الخـطوط تـزداد وضوحا . امامها عدد من قناني ادوات التجميل ، فتحتها كلها مزقت اوراقهـا وعلبها ودهنت الـوجه والعنق . ومن فتحات الشباك الخشبي الصغيرة تأملت الجـارات يغادرن بيوتهن بصبحة رجالهن ولم تدر لم انتظرت عودتهم .

وارتفعت الأصوات تتحدث وتضحـك على الـدرج في اواخر الليل فأزالت المساحيق عن وجهها واستلقت تنتظر طلوع الصباح .

كل مساء تنتظر طلوع الصباح ولكن الليل يأتي حـاملا لها تحذيرات الخوف من لص ليلي ينتهز وحدتها .

وجاء صباح جديد قديم ، وجاء عمل جديد قديم .

كانت الزميلات يتساءلن عما سيرتدين مساء ، وتطلعت واحدة الى البطاقة وقالت ان موعد السهرة مبكر فزوجها لا يصل البيت قبل الثامنة وستخبر المدير انها ستتأخر .

قفزت بعينيها الى طاولتها فلم تر عليها بـطاقات . . . وتمنت لـو تعرف فقط مـا يدور الحـديث عنه . ولم يـطل انتـظارها طـويلاً فقـد احست حركـة واهتمامـا في انحاء المكتب ، وصلت زوجـة المديـر تختـار من المـوظفـات من يساعدها في حفلة الليلة الساهرة . وقبل ان تغـادر المكان قالت لها (لم نرد احراجك بالـدعوة فنحن نـدري انك لا تستطيعين السهر خارج البيت) ارجو ان يتاح لنا دعوتك في المستقبل .

وقفـز سؤال الى شفتيها لم يخـرج (امـا كـان بـوسعكم دعوتي وترك الأمر لي ؟ ولكن شفتيها تمتمتا عبارات فهمت منها زوجة المدير انها تشكرها على مراعاة ظروفها .

حاولت اعادة التمتمات اوضح ولكنه كان هذه المرة همسا لم تسمعه هي نفسها .

جاءها الحاجب يقول انه مستعد لايصالها للبيت بعد انتهاء الحفلة فهو سيبقى هناك يساعدهم .

واغرقت نفسها في العمل ، اتمت ما كانت تعده في أيام ، ولكنها لم تراجعه كعادتها ، كانت اصوات وضحكات الساهرين وفساتين الزميلات تمر امامها .

على الاشارة الحمراء وقفت ، وصلت شحاذة تحمل رضيعا بائسا . مدت الشحاذة يدها تتوسل : يحفظ الله لك زوجك .

اجابت بحدة : ليس لي زوج

ـ يحفظ الله اخاك

ـ ليس لي اخ

ـ يحفظ اباك

ـ ليس لي اب

وتأملتها الشحاذة وتوسلت بآخر امكانية : يحفظ ابنك .

انقذتها اشارة الضوء الخضراء .

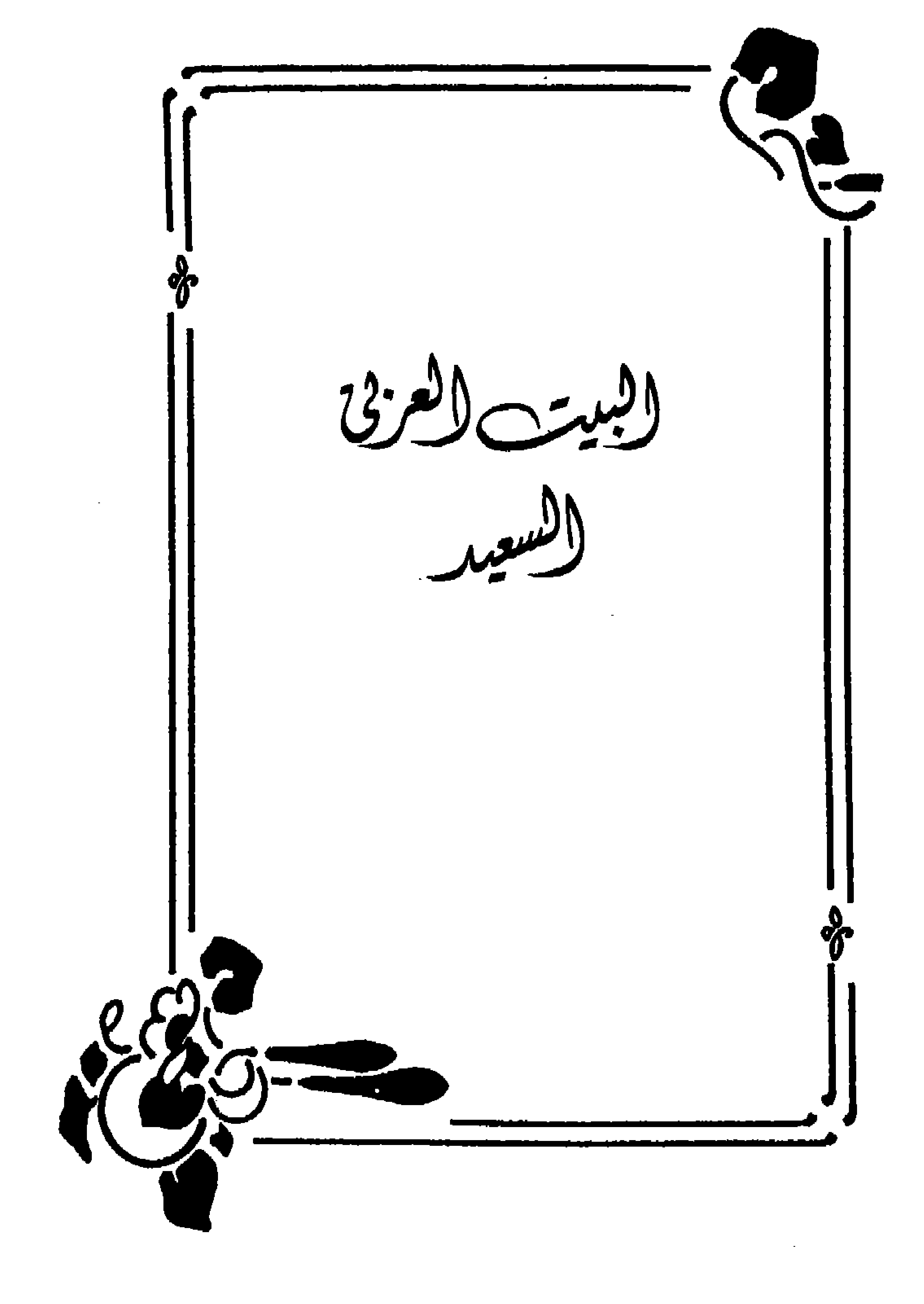
في البيت تأملت ما حواليها فلم تر في الجدران غير عريها
ومن النوافذ غير صمتها وعلى الكراسي غير فراغها .

وقفت امـام المرآة : تعتـرف ان وجههـا غـير جميـل .
تعترف انه شاخ ، تعترف ان المستقبل صار ماضيا .

رددت الجـدران والنوافـذ والكراسي صـوت صراخهـا
وهي تزعق (أريد القيام بفضيحة) .

سمع الحاجب محجـوز بأصوات السيارات وهو يشرف
على تنظيم ايقافها .

1974



البيت العربى السعيد

كان صوت هدير الضيوف يهبط من الشرفة ويغطي على صوت محرك سيارتها . اليوم كالأيام الفائتة والأيام الآتية ، مملوء بالأصوات، ولا مكان للوقوف في البيت . لا مكـان للتحدث في البيت . غرفة نومها . . سريرها . . استرخاء اجباري وهي . هي المملوءة حيوية . . النوم اجباري .

قنينة الحبوب المهدئة للأعصاب فارغة . . فرغت امس ونسيت اليـوم ان تملأهـا ، شغلها العمـل وشغلتها همـوم البيت عن ملء قنينة الحبوب المهدئـة للأعصـاب ، ولكن النوم اجباري ، فمن أين تأتي به ؟

غرفة المكتبة مضاءة . . ما عليها ، ضيوف زاد عددهم عـلى عدد الكـراسي ومساحـة غرفـة الجلوس فلجـأوا الى

المكتبة . . ما عليها . . غرفة النوم . . سريرها في انتظارها .

جاءها يقول : وحيدة ، عندك ضيفة في المكتبة ، اذهبي اليها .

ـ ضيفة لي ! من هي ؟

ـ زوجة صديقنا لا تستطيع الجلوس مع الرجال ، انها محجبة .

ـ زوجة صديقنا ؟! صديقنا التقدمي ؟! زوجته محجبة ؟! زوجته محجبة ؟!

ـ لست زوجها لتحاسبيني .

واستسلمت وحيدة . زوجة احد التقدميين محجبة أصرت على زيارتها . وهي ، هي التي لا تحسن الحديث الى السيدات المحجبات ، لا تعرف لغة حوار هاته النساء . هل تحدثهن عن الأولاد ؟ ليس لها ولد . هل تحدثهن عن مشاكل الجيران ؟ ليس بها فضول حتى لمعرفة اسمائهم . تحدثهن عن الهموم السياسية ؟ تحدثهن عن آخر كتاب قرأته ؟ الزوجة المحجبة ، ماذا تقول لها ؟

سألتها : كيف تعرفت على زوجك ؟ هل هناك انسجام فكـري بينكما ؟ كيف التقيتـما ؟ ما دورك في حياتـه كتقدمي ؟؟

لم تفقه الضيفة سؤالاً ، وعلى وجهها بـدا الانشداه من سيـل الاسئلة . لا . . لا . . معـذرة يبـدو انها فهمت شيئا .

وقفت كالتمليذة المطيعة تـردد انها ابنة عمـه ، سميت على اسمه منذ كانا طفلين . امه . . راضيـة عنها فهي لا تخـالف امرأة العم ، شؤون المـطبـخ تحت اشـراف امـرأة العم ، نظام البيت راض عنه أفراد أسرة العم . هي . . هي لا تعـارض . هي . . هي راضيـة . هي تـقبـل بـالرضـوخ لأن امرأة العم تـريد هـذا . وما الـداعي الى الصراحة اذا كانت الاستكانة ترضي الجميع . ترضي الأم والأخوة والأخوات . . وآخرين ، كل الآخرين ؟

وتسألها وحيدة : . . هل انت راضية ؟

ـ أنا أعمل كل ما أريد دون ان اعلن هذا .

ـ وزوجك . . زوجك التقدمي هل هو راض ؟

ـ ما دامت امه راضية فلم يعارض ؟

ـ وهل امه راضية ؟
ـ تتظاهر بالرضى أمـامه وتعمـل كل مـا تريـد دون ان تعلن هذا .

السيـدة المحجبـة ، زوجـة التقـدمي ، اذكى ممـا تصورتها . فلم تتظاهر بالغباء ؟

سكتت وحيدة ثم فكرت ، هل تحاول استفزازها ؟

هل تحاول تحرير رضوخها ؟ هل تبعث فيها الثورة ؟

لم لا تمزقين عباءتك ؟ أتراك ولدت محجبة ؟

ألم تولدي عارية ؟ أيهما أقرب الى الـطبيعة: العـري ام الحجاب ؟

ولكن وحيدة لم تقل هذا الكلام . . لم تقله لأن الزوجة المحجبة التي تتظاهر بالرضوخ ستأخذ كلام وحيدة وتنقله على انه دعوة الى العري . . دعوة الى الفجور . . دعوة الى الاستهتار . . وتذكرت . . تذكرت يوم قالت كلاما شبيهاً بهذا لمحجبة شكت لها كراهيتها للحجاب نقلته بأن وحيدة داعية للمجون والدعارة وانها معجبة بجسمها تريد عرضه للزهو به .

لمست وحيدة رأسها ، بعثرت شعره ، تتأمل زوجة التقدمي المعجب بها زوجا ما دامت أمه راضية عنها .

قطعت السيدة الكبيرة صلاتها وجاءت تساهم في الحديث . رددت زوجة التقدمي كلامها عن اعجاب امرأة العم بها فطربت السيدة الكبيرة رضى الله من رضى الوالدين .

قالت وحيدة : والرضى عن النفس ؟

وعادت يداها تعبثان بشعرها فتغلغل الهواء فيه .

ـ هل تصلين ؟ طبعا .
ـ هل تصومين ؟ طبعا .
ـ كسبت الدنيا والآخرة .

ضحكت وحيدة بصوت عال فاستدارت المرأتان اليها ، لم تسألاها لم تضحك ؟ فالضحكة المستنكرة ليهمل امرها ، هذا انفعال آني سرعان ما يتلوه صمت راض . سمعت نفسها تقول : لم تكسبا الدنيا ولن تكسبا الآخرة ، الصدق مع النفس هو الدنيا والآخرة ، الانسجام . .

ولكن محاضرتها التي ظنتها ستحرك زوجة التقدمي لم

تظهر أية آثار لها على وجه أية من السيدتين . لبستا قناعا وبدأت السيدة الكبيرة تتمتم بالصلوات فلم تجد زوجة التقدمي نفسها إلّا وشفاهها تتحرك . فكل زوجات العم زوجة عم .

وذهبت وحيدة الى غرفتها . في الدرج بجوار سريرها دفتر صغير تدون فيه . كانت تكتب في هذه اللحظة (أضيق السجون معاشرة الأضداد) .

يوم جاءت بثيابها الى البيت الجديد وعلقتها في الخزانة ولم تعرضها على جمهرة السيدات ، رأت في عيون الزائرات نظرات تساؤل . رفضت النظر في عيون المتسائلات وأهملت فيها الفضول .

السيدة الكبيرة طرحت سؤالا لم تطق الصبر عليه : أين الفستان الاسود ؟

اجابت : لست غرابا

ـ ولكن مناسبات الحداد كثيرة

ـ لا لا أعترف بالسواد تعبيرا عن الحزن

ـ والناس ، ماذا يقولون ؟

ـ هل سألتهم يوما لم لا يتعرون ؟

سألتها احدى الزائرات : لا تبدين كالعرائس ، لا تتزينين ولا تلبسين المصاغ .

ـ لست جارية أتبرج لسيدي ، أنافس على قلبه بقية الحريم .

وتذكرت زوجة التقدمي التي تجلس في غرفة المكتبة المضاءة تتمتم شفاهها : أهي صلوات ؟ ما هم السؤال ما دام الذي يبدو على الشفاه شبيها بالصلوات ؟

وجه زوجة التقدمي مصبوغ بقناع ملون واصابع يدها مزنجرة بالخواتم المعبأة بأقذار العمل البيتي لا وقت لديها للنظافة . سيدة بيت فاضلة يشغلها العمل عن النظافة .

النظافة ؟ هي طاهرة تقوم بواجباتها الدينية فأين عدم النظافة في هذا ؟

صوت غرفة الجلوس يعلو ويطغى . . تنساه فترة في ازدحام التفكير ثم يعلو على تفكيرها ويشردها فتنتظر لتعود افكارها الى مكانها .

صباح اليوم الآخر كانت في مكتبها حين دخل الى

غـرفتها صـاحب دار نشر يعرض عليهـا قـائمـة جـديـدة بمطبوعات داره .

الأعمـال الكاملة لـطه حسين . اعجبت بـالاخراج ، فالغلاف أزرق تخرج منه صورة طه حسين يبتسم . مع انه كان اعمى ، فقد كان له حس صادق بالألوان .

منـذ طفولتي وانـا معجبة بـأسلوبـه . كتـابـه حـديث الاربعاء كان المفضل عندي فهو اول من تحدث عن الحب العـذري وبرر أسبـابـه بعـوامـل اقتصـاديـة . لقـد سبق عصره . . .

وسكتت . . وجدت نفسها تعود الى أيام الصبا الأولى يـوم كان عـالم الكتب عالمهـا الأفضل وتتـذكر امهـا تقـرأ دواوين الشعر ، تطلب منهـا الانصات ، تسمعهـا بيتا او ابياتا اعجبت بها .

شفـاه امها تتمتم الشعـر ، لم يخيل لهـا يـومـا ان تلك التمتمات قد تكون شتائم .

حين عادت الى البيت ، محملة سيارتها بأكداس المـواد المرشحة للطبخ ، فكرت بضيوفها . الليلة مـوعد النـدوة

الشهرية للأدباء . الليلة سيتحدثون عن الفيلم الممتد عرضه لأسابيع هل يستحق هذا الاقبال الجماهيري ؟ اهو فيلم تجاري ؟

هي ترى ان الفيلم قد نجح لأن في نفس كل منا عودة الى الطبيعة . الوان الفيلم صارخة كالغابة ، موسيقاه ملحة كالحياة . اشخاصه متمردون كالقدر .

غرفة الجلوس اصواتها تعلو على ضجيج السيارة . المطبخ مكدس بتلول الأكل والصحون والقدور . اين تضع ما جاءت به ؟ أين تعد ما جاءت به ؟ أين تقف هنا ؟

غرفة النوم . . سريرها في انتظارها .

قنينة الحبوب المهدئة للأعصاب مملوءة . تناولت حبة وانتظرت . . انتظرت زوال الأصوات .

علت الأصوات . انهم في طريقهم الى الخروج هرعت الى المطبخ ، تطلب من الخادمة ازالة الأكوام . بعد نصف ساعة كان المطبخ نظيفا وكذلك غرفة الجلوس .

فرشت الحوائج . وبعد تنظيف بصلة واحدة رنّ جرس

الباب . علت الاصوات في المدخل وانطلقت الى الداخل وهرعت الخادمة تعد اكواب الشاي والقهوة .

السرير ينتظر استرخاءها . بلعت حبة جديدة مهدئة للأعصاب . بعد ساعة جاء الصمت وعاد العمل الى المطبخ .

بعد دقائق رن الجرس . فوج جديد تعلو ضجته .

بعد ساعتين عاد الهدوء وركضت الخادمة تنظف الأماكن وعاد الاستعداد للسهرة .

رنين الهاتف يعلن قرب وصول وفود جديدة ، حاولت الاسراع ولكن احد الضيوف جاء بزوجته ، وعاد الضوء الى غرفة المكتبة .

وكان الحوار معها اكثر توترا . جاءت الضيفة ومعها ولدان وثالث في بطنها . لقد تركت في البيت سبعة .

رأت التأنيب في عيني وحيدة فأكملت : حرام ان يمنع الأبوان انجاب الأولاد هذا اجرام يحرمه الدين . انه يوازي جريمة القتل .

وعادت تسمع نفسها تقول : الحكم على انسان بالحياة اسوأ من الحكم عليه بالموت .

الضيفة تنظر بزهو الى بطنها وطفليها .

السيدة الكبيرة تتحدث عن وجوب انجاب اكبر عدد من الأولاد ليستند عليهم الأهل في شيخوختهم ، ومرة اخرى سمعت نفسها تقول : « لأجل هذا يجب عدم الانجاب ، كيلا نحمل اولادنا سوء شيخوختنا وهم في عز الشباب » .

الضيفة تنظر بوله الى بطنها وطفليها وهما يعبثان بحوائج الغرفة ويقلبان كل ما فيها ، انهما طفلان سعيدان والعبث بالآخرين من مظاهر السعادة .

صوت رجل يدعو الضيفة فقامت هي وبطنها وطفلاها .

اسرعت الخادمة تنظف البيت وذهبت وحيدة الى المطبخ تتأمل أرطال الفناجين والفضلات والى غرفة الجلوس وقد تبعثرت فيها اعقاب السجاير تحت الكراسي وتحت الطاولات في اماكنها الجديدة .

ومرت الساعة قبل ان يعـود النظام الى البيت ويكمـل نصف اعداد الطعام .

ولكن وبعـد خمس دقائق بـالتمام والكمـال رن جرس الباب فمشت وحيدة الى الهاتف تخبر اصدقاءها ان اجتماع الليلة اجل لأسباب تشرحها بعد ذاك وهي تدري انها لن تشرح الأسباب ، فهذا وعد لم تف به أبدا .

حين خرج الضيوف ، اخبرت وحيدة من في البيت انها اجلت اجتماع الليلة ، فليتصرف كل بوقته .

السيدة الكبيرة طلبت من ابنها ايصالهـا الى بيت ابنتها حيث تجتمع كومة من النساء .

فجأة انتاب وحيدة فرح طاغ وانتظرت بصبر نافذ فراغ البيت . قـالت للخادمـة : اذهبي ونامي خـارج البيت ، اذهبي وزوري من شئت غيبـي عن الـبيـت لا أقـل من ساعة .

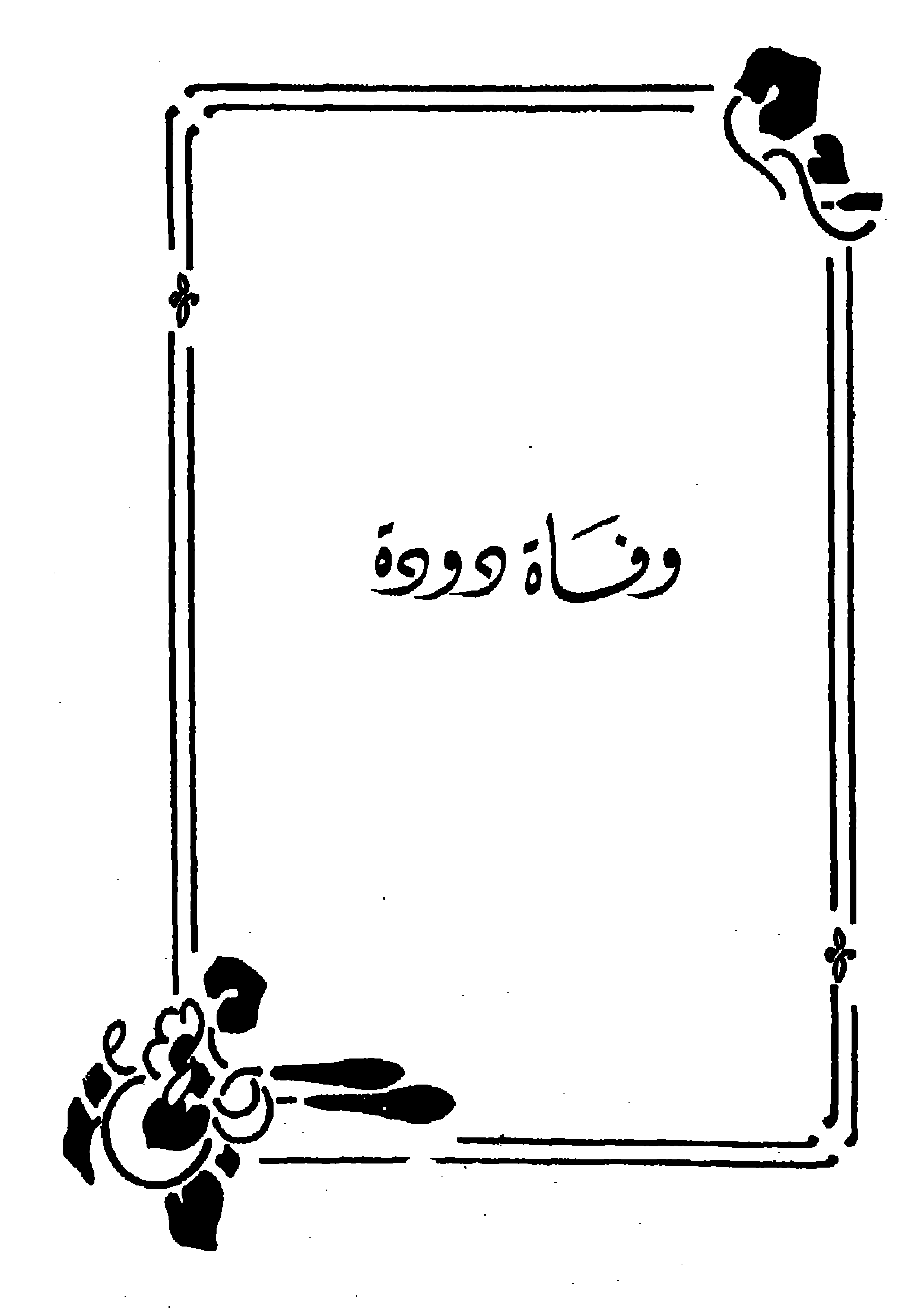
اغلقت الباب بالمزلاج من الداخـل واستلقت على أول مقعد صادفته . رمت فردة الحـذاء . . ودفعت بالأخـرى بعيدا .

قـامت الى النافـذة ، اسدلت ستـائـرهـا والى الثـانيـة وإلى الأخـريـات كـذلـك . واضـاءت النـور . نــزعت جـواربها ومشت حـافية . فتحت أزرار ثـوبها . . وتـركته يتساقط عنها . سارت في أرجاء البيت غرفة بعد غرفـة . تسمـع صـوت الصمت . أصغت الى الجـدران العـاريـة وركزت عينيها على الكراسي الفارغة .

دخلت الحمـام ، فتحت الـدوش وحنفيـة الحـوض واستلقت فيه .

رذاذ الماء يتساقط عليها والماء يعلو يغطيها . ومن غناء الماء وصلتها الصلاة .

1973



وفاة دودة

النبتة الشابة التي كانت ترتفع وتتعالى ملتصقة بـالحائط وتمد فروعها المعافاة اللامعة الخضراء الى السقف تستقبـل شمس الصباح بابتسام ، وأفول شمس المسـاء بابتسـام ، شـاخت فجأة . اصفـرت أوراقها واختفى القسم الأروى منها ، وامتدت على الجدران اغصان بنية هزيلة خريفية بل شتائية .

الدنيا ربيع ، هكذا تقول كل النباتات وتعلن ، وهكذا تقـول القلوب وتعلن ، وهكـذا يحس كـل شيء ويعلن . وقفت الأسرة تتأمل النبتة العزيزة تحتضر .

وصلت رسـالة من الابنـة المتزوجـة بعيدا . قـرأ أفراد الأسرة . بين سطورها اسى وهم . ما بال الابنة ؟، لَم يبدو

حـديثها تعسـا ؟ لم لا تعلن عن همومهـا بـوضـوح ؟ لم لا تشرح أسباب الحزن ؟

هل يرسلون رسالة تستفهم ؟ واذا وقعت الرسالة في يد الزوج ، هل يزيد تساؤلهم الطينة بلة ؟ .

الابنة المتزوجـة بعيدا ، واضـح انها تعيسة فـما موقف الأسرة من كل هذا ؟

عـلى الأرض ، تحت النبتة المحتضـرة ، حبات سـوداء صغيرة . ليست ثمرا ولا زهـرا ولا ورقا نـاشفا . انتقلت الأعين من الأرض الى الحائط والى السقف ، وفجأة صرخ احدهم : هذه فضلات ديدانية ، هنالك دود . هنا دود . هنا دودة تقضم النبتة . اكتشفنا سر الاحتضار .

وعادت الابصار ترتفع الى فـوق ، تحدق في الأغصـان والأوراق المتبقية من النبتة وطال التحديق وطـال التفتيش وعاد احدهم يعلن بفـرح انه اكتشف السر كـاملا . رأى دودة بنية قاتمة بلون الغصن تماماً ، ملتصقة به كأنها جـزء منه ، وامتدت أياد تريد اغتيال الدودة ، واستعانت الأذرع بقضبان خشبية وحديديـة قبل ان تستـطيع انتـزاع الدودة الداخلة في الغصن كأنها جزء منه .

وعاد أفراد الأسرة يتجمعون حول الدودة الميتة والغبطة تملأ قلوبهم ووجوههم وضحكاتهم وأحاديثهم .

لقد قضوا على خانق الأرواح وستعود النبتة الى ازدهارها .

وصلت رسالة من الابنة المتزوجة بعيدا . كان الحزن اكثر وضوحا من الرسالة السابقة ولم يكن مقروءاً بين السطور بل كان معلنا بحروف واضحة عليها كل النقاط . انها تعسة ، تبكي الليل والنهار وتريد الآن اعلان حقيقة اخفتها سنوات .

انها تتمنى لو لم تتزوج ، لو لم تبتعد عن احضان الأسرة الحنون . الأسرة الحنون احست بتأنيب ضمير كبير . ابنتهم المتزوجة بعيدا تسميهم اسرة حنون وهم الذين ابعدوها وزوجوها دون استشارتها لشخص تعرفت عليه ليلة العرس ! الآن وقد انجبت من هذا الشخص ثلاثة اولاد فما هو الحل ؟

على الأرض فضلات دودية سوداء صغيرة متناثرة . زعق احد افراد الأسرة : ألم تكنس الشرفة ؟ الم تغسل ؟

فمن اين جاءت الفضلات ؟ اهي جديدة ؟

وارتفعت الأبصار الى فوق تتأمل النبتة الغالية وقد بدت تعسة تسترحم بهم . وتغلغلت العيون في الأوراق المتبقية والأغصان الصبور . لم يكن هناك دود .

أصر أحدهم على إعادة التحديق وأمسك عنقه الملتوي الى فوق يساعده على البقاء ملتويا الى فوق وصرخ بفرح وجدتها . انها اليوم خضراء بلون الورق . الدودة خضراء محشوة بفتات الورق الغض . لم تر بقية العيون الدودة وامسك المكتشف بقضيب خشبي طويل وأشار الى حيث تختفي .

انها اليوم اكبر من قبل واظافرها مغروزة بالورقة وبسحبة قوية سقطت الدودة متفجرة على الأرض مبعثرة احشاءها على الرخام .

وتنفست العائلة الصعداء واغرقت الأرض الرخامية بالماء فانجرفت الفضلات السوداء والاحشاء الخضراء .

وصلت رسالة من الابنة المتزوجة بعيدا لتكشف حقائق بقيت مجهولة سنوات . ام الزوج ، تعذب كنتها ، تهينها .

توغر صدر زوجها ضدها ، والزوج منحاز لأمه لا يرى في زوجته حسنة . ما تقوله الأم يوافق عليه تماما وهي الابنة المتزوجة بعيدا مظلومة في كل هذا .

لم يبق لها غير الأهل تستعين برأفتهم .

اجتمعت الأسرة الحنون تتدارس حالة الابنة . هل تطلب طلاقها ؟ هذا كثير . هل توبخ الزوج ؟ ماذا تكون ردة الفعل عنده ؟ هل يسافر احد أفراد الأسرة يستوضح ؟ من منهم قادر على السفر ؟

ارتفعت عيون الأسرة الى السماء وارتفعت الأذرع واستسلمت الأيدي ترجو حدوث معجزة تخلص الابنة البعيدة من نير الحماة وتجعل الزوج يحبها .

لأيام لم تر على الأرض فضلات سوداء ولم تصل رسائل شكوى من الابنة .

وذات صباح وبينما كانت الأسرة تتناول طعام الفطور علا صوتان . صوت احدهم يعلن عودة الفضلات السوداء على الأرض . وصوت جرس الباب يعلن وصول رسالة من الابنة البعيدة .

النبتة الخضراء لم تعد خضراء جزّت أوراقها تماماً عدا القسم الأسفل منها .

والرسالة تقول ان الابنة ستنتحر ان لم تجد لها الأسرة علاجا.

توقفت اللقمة في الأفواه وجحظت العيون تتطلع الى بعضها وانحسرت عن المائدة الأيدي وخيم الصمت على الجميع .

احد أفراد الأسرة قرر الاستعانة بخبير زراعي يعالج مشكلة قضم الدودة للنبتة .

والسيدة الكبيرة قررت السفر لحل مشكلة ابنتها المتزوجة بعيدا .

عادت الأم من السفروهي تعلن ان لا علاج لحالة الابنة فالزوج غير قادر على اسكان زوجته في بيت مستقل وهو كذلك يوافق امه بعدم الاعتراف باخطائها والابنة تزداد تعاسة .

اما النبتة فبدأت ترش بمبيدات الحشرات . كل اسبوع تغرق بنوع جديد وكل يوم تمتلىء الشرفة بالفضلات

السـوداء والنبتة مصـرة على الحيـاة لا يكاد ينبت لهـا فرع جديد حتى تلتهمه الدودة البنية مرة والخضـراء مرة ، مـع الحكم عليهما بالاعدام دائماً وسحقهما بالأقدام .

وجاءت رسالة من الابنة المتزوجة بعيدا تقول انها تنحل وتهـزل وتكاد تتـلاشى ، والزوج لا يسمـح لها بـاستشارة طبيب ، وأدوية الجارات لم تفلح في العلاج ، توصيهم ان يدفنوها في بلدها . لا تريد البقاء هناك حتى وهي ميتة . تنتظر العودة الى تـربة الـوطن الدافئـة والى جوار الأسـرة الحنون .

صرخت الأم وهي تمزق زيق ثـوبها وتستنجـد بالسـماء طالبة منها أخذ روح حماة الابنة الشابة فهذه هي الطريقـة الوحيدة للخلاص .

رددت الأسرة وراء الأم دعاءها ولم تهتز السماء ولم تغب الشمس ولم يتوقف مجيء الليل .

وجـاء الخـريف وتسـاقـطت كـل الأوراق ولم يبق من مزروعات الشرفة غير اغصان سوداء جافـة ولم تعد تتنـاثر على الأرض اية الوان .

مر الخريف وجاء الشتاء والدعاء الى الله بأخذ روح حماة الابنة المتزوجة بعيدا يتصاعد كل يوم .

وحين بدأت بوادر الربيع قصّت العائلة بصمت جنائزي ، اغصان النبتة العزيزة المتبقية على الجذع .

مزروعات الشرفة برعمت وتفتحت اوراقها الخضراء النضرة وما ينتج زهورا منها اعلنه بألوان متعددة والنبتة العزيزة لا تزال بنية بجذعها الوحيد .

الابنة المتزوجة بعيدا تنتظر مع الأسرة ان يعجل الموت بأخذ روح الحماة .

ولكن السماء استجابت لنصف الطلب . اصيبت الحماة بشلل نصفي اقعدها عن الحركة ولم يبق منها ما هو قادر على العمل غير لسانها السليط الذي يؤلب قلب ابنها على زوجته فينحاز مطيعا لها يلبي الرغبة الوحيدة القادرة على طلبها .

وصار على الابنة المتزوجة بعيدا خدمة المشلولة والعناية بها وتنظيف فراشها مرات في اليوم من الفضلات التي لم تعد قادرة على رميها في المرحاض .

وتساءلت الأسرة لِمَ لم تشل السماء لسان الحماة ؟ لِمَ لم يصب لسانها وحده دون بقية اجزاء الجسم .

كان لتفتح احد براعم النبتة العزيزة وقع عميق سعيد على القلوب .

تغلبت النبتة على عدوتها الدودة ، وحين استمر تفتح الأوراق وامتداد الأغصان احست الأسرة ان الدنيا بخير . ولكن الفرحة لم تطل اذ عادت الفضلات السوداء تملأ الشرفة ، وعاد التفتيش عن الديدان ، وعاد اصطيادها وفقست الديدان وتكاثرت وسطت بسرعة مذهلة على كل مظاهر الحياة في النبتة .

يئست الأسرة وصارت تتطلع الى النبتة كنشاز بين بقية المزروعات السعيدة .

وتوالت رسائل الابنة تشكو وتتألم شارحة ثواني ودقائق وساعات الأيام التعسه التي تمر عليها وهي تسمع اللسان السليط ونتائجه على الزوج . لم يبق الا الموت الراحم . اما ان يأخذ الحماة او الكنة فتستريح الأخيرة في الحالين .

اكتشفت الأسرة في صباح احد الأيام ، ان النبتة التي

كانت عزيزة لم تعد موجودة . اقتلعت من جـذورها . ولم يتساءل احد من فعل هذا . . المهم ان الفاعل شجاع ازال النبتة وديدانها وتخلصت الأسرة من هم المراقبـة اليوميـة ، والمصـارعة اليـومية ، ومن العـلاج غير المجـدي ، وعـاد للشرفة رونقها وجوها المعافى الأخضر .

قالت البرقية

« أبلغكم ببـالغ الأسى والألم نبـأ فجيعتنـا بـوفـاة امنـا الحنون . الهمنا الله واياكم الصبر والسلوان » .

التوقيع
صهركم المحب

في اليـوم التالي كـان صوت النـواح يتعالى من النسـوة المرتديـات السواد وهن يقـدمن تعازيهن لـلأم التي تصرخ بقلب ملهوف نادبة سوء حظ ابنتها التي فقدت اما حنونـا وصدرا واسعا وقلبا ضمها في اعماق اعماقه وانساها الغربة والبعد عن الأهل .

امـا مجلس الرجـال فخيم عليه صمت رهيب تقـطعـه اصوات رشفات فنـاجين القهـوة وعيدان الكبـريت تولـع

السجاير تحاول نفث الهم الكبير .

وكانت الابنة المتزوجة بعيدا ترمي نفسها على جثمان حماتها وتصرخ : ادفنوني معها ، لا طعم للحياة بعد ذهاب النبتة الحنون التي ظللتني بفيئها وخيرها ، ويفرح الزوج اذ يتعالى صوت زوجته تندب امه بفجيعة حقيقية تسمعها النسوة .

سطعت الشمس على الشرفة ولمعت المزروعات الريًّا مزهوة بنضارتها والزهور الملونة ترفع اعناقها شاكرة .

1974



سائق الباص الحكومي

كان الباص الحكومي يسير امامها ، يستهلك الشارع تقريبا بعرضه وكلما توقف الباص اضطرت هي للتوقف ، فالشارع ضيق ذو اتجاهين .

تأخرت عن موعد ابتداء العمل اليومي فحاولت عبور الباص الحكومي ، ولكن السيارات القادمة كانت تقسرها على التوقف في مكانها الى الوراء الى خط الباص الحكومي .

وسائق الباص ! هل يبقى هكذا دائما مقيدا بمكان الوقوف لهبوط وصعود متوقعين قد لا يحدثان ؟ واذا انتهى خط السير المرسوم له ، يعود في خط السير المرسوم له في العودة ؟

هكذا يفعل كل يوم . . . كل يوم سبع مرات في

الأسبوع ، ثلاثون مرة في الشهر ، لا هناك واحد وثلاثون يوما . . هناك شباط ثمانية وعشرون يوما هناك . . هناك السنة الكبيسة تسعة وعشرون يوما .

وما أهمية عدد أيام الشهر والخط المرسوم لسائق الباص الحكومي هو واحد واحد ؟

صار معتادا على الوقوف في المحطات دون ان يدري انه توقف ، ويعود للسير دون ان يدري انه سار . صار كالدابة المحملة تعرف طريقها اليومي تنقل الأثقال حتى لو كانت معصوبة العينين .

جاءها شارع جانبي فانحرفت اليه . . الى طريق العمل وقد تأخرت عن روتينها اليومي عشر دقائق . لا شك انها حيّت من رأته في الممرات الى غرفتها فقد سمعت رد تحيات الصباح ، ووضعت سيارتها في المكان المعهود والا فلم تخشخش المفاتيح في يدها ؟

دخلت الغرفة وهي تفكر في هذه العشر دقائق الضائعات . كيف يمكن تعويضها والصحف هي هي تصدر ما دام الصبح يطلع كل يوم بالأخبار فلا يمكن ترك

أوراق فارغة مهما كانت تفـاهة الأحـداث وعليها هـي ان تقرأ كل الاخبار السياسية كل يوم .

سائق الباص الحكومي لا يتأخر عشر دقائق ولو تأخر ؟ فالطريق المرسوم له مرسوم .

فتحت الصحف .

مـاذا لو تمـرد سائق البـاص الحكومي عـلى خط سيـره اليومي ؟

على الصفحة التي امامها تعليق على المسرحيـة الغنائيـة الجديدة .

ماذا لو ترك مزاجه يقوده حيث يشاء ؟

على صفحة اخرى مقارنة بين الأمسيات الشعريـة لهذا الشهر .

ماذا لو لم يعد على نفس الطريق المعهود ؟

المسرحية التي يبدأ عرضها هذا الأسبوع يقول الناقد انها افضل مسرحيات المخرج السابقة .

ماذا لو تعرض الباص لحادث اصطدام ؟

المقارنة هنا بين معرضين لرسامتين عربيتين .

ماذا لو تجاهل سائق الباص الحكومي وجود الركاب وطار مسرعا ؟

البحث يدور حول شعراء الستينات وكيف يختلفون عن شعراء الخمسينات .

ماذا يفعل سكان الباص الحكومي اذا دقوا الجرس للسائق فلم يأبه لطلبهم .

الأمسية القصصية دار بعدها نقاش طويل .

ماذا لو وصل السائق الى آخر الخط وانزل كل الركاب ؟

القصة كذلك تستأثر باهتمام السامعين وليس الشعر وحده .

ماذا لو اختار السائق طريقا يبعده عن ضجيج المدينة وازدحامها ؟

هنا قائمة بأسماء الكتب الجديدة الأكثر مبيعا لهذا الأسبوع . ولو وصل السائق الحكومي الى مكان تشرق فيه الطبيعة بألوانها وعطرها وموسيقاها ؟

لدى الناس عودة الى الرومانتيكية ، فالكتب العاطفية هي الأكثر مبيعا .

واكتشفت فجأة ان السكون يطرق سمعها .

ليس في المكتب صوت ولا حركة ولا نفس .

فتحت باب الغرفة فاذا المكتب فارغ وبابه مغلق وقد غادره الجميع .

الساعة تشير الى ما بعد الثالثة . انتهى الدوام اليومي منذ اكثر من ساعة .

الصحف تملأ طاولتها وأوراقها مؤشر عليها بلونين احمر واخضر .

وهي عادة تستعمل لونا واحدا في احاطتها للأخبار السياسية .

رتبت الصحف . وقعت عيناها على خبر سياسي مثير منشور على الصفحة الأولى بحروف بارزة كبيرة ولكن غير مؤشر .

جاءت بقلم التلوين . صحيفة ثانية مملوءة بالأخبار والتحقيقات والتعليقات السياسية غير مؤشر عليها كذلك .

قلبت بقية الصفحة . . كلها مؤشرة بالأحمر والأخضر

ولكن اللونين يحيطان بكل الأخبار الفنية والأدبية والثقافية ولا خبر سياسي بينها .

حملت كـومـة الصحف ورمتهـا عـلى الأرض . خلت الـطاولة وامتـلأت الأرض . انحنت عـلى الأرض تجمـع الصحف . ستحملهـا إلى البيت . بعـد الـظهـر ستضـع الرسن على صدغيها وتقرأ الأخبار السيـاسية . اليـوم بعد الظهر موعد اللقاء مع وفد الأدباء الزائر .

اتكتب تقريرا أدبيا فنيا ثقافيا ؟

مـاذا يفعل سـائق الباص الحكـومي ؟ ايسير في خـطه الخانق ام انه تمرد عليه ؟ واذا فعل هذا فمـاذا ينتظره من عقاب ؟

الساعة قاربت الرابعة وعقاربها تمر عـلى ارقام بـانتظام لاحق له بالقفز .

لا وقت لأحلام تعد لسائقي الباص الحكومي .

1975

بيت رائع

اليوم الجمعة ؟ لا انه الاثنين مذياع الجيران يذيع نشرة اخبار الصباح . اظنها نشرة العصر .

وتطلعت الى معصمها الساعة تشير الى السابعة انه صباح يوم الثلاثاء دوامها اليومي يبدأ في الثامنة . واتضحت الأشياء بثانية واحدة . اليوم ليس عطلة والوقت ليس مغربا . انه صباح جديد ليوم عمل جديد تتجدد فيه كل الأمور القديمة اليومية المعتادة .

قالت للحاجب صباح الخير فوقف يرد لها تحية الصباح. وصلت غرفتها وأكوام الصحف على الطاولة بعد دقائق خمس دخل الحاجب بفنجان القهوة وهو كالعادة قليل البن كثير السكر وهي تحبه على العكس كثيف البن قليل السكر . صارت تشرب قهوتها التي لا تحبها انتظارا للشاي

الذي تحبه غامقا وكلما جاءها الحاجب بفنجان شاي او قهوة جديدة قالت لنفسها هذا آخر منبه اشربه اليوم فأعصابي متعبة ولكنها تشرب السائل وهو منبه ويتعب اعصابها .

الصحيفة اليمينية التي تموِّلها السفارة الفلانية تكتب التعليق على الصفحة الثالثة العمود الأول من اليمين وهي تهاجم فيه النظم الاشتراكية عامة . قرأت التعليق واحتفظت به . الصحيفة الأخرى ينشر معلقها حديثه على الصفحة الأولى . الدس اليوم اكثر عمقا من الأمس وأوضح من تعليق ما قبل الأمس . الخبر المنسوب في الصفحة الثانية الى مصدر معين جاء في الحقيقة من مصدر آخر لا يريد ان يعلن عن اسمه ولكن الكل يعرف حقيقته وحين يتحدثون عنه ينسبونه الى الاسم الأصلي ومع ذلك فالمعلق مع معرفته بأن الناس يعرفونه فهو يصر على التوقيع غير الصحيح .

جاءها الحارس مدت له يدها بمفاتيح السيارة .

الصحيفة السابقة باعها صاحبها الى جماعة جديدة صاحبة رأي يناقض مبدأه ولكن ما هم لقد دفعوا له مبلغا

محترما ثمن الامتياز ثمنا يستحق معه تغيير المبادىء .

مد ماسح الأحذية رأسه الأشيب من الباب ورآها كما يراها كل يوم وهو يدري انها ليست رجلا ولا تمسح حذاءها وليس في الغرفة سواها .

لخصت الأخبار التي تلخص كل اسبوع . اخذت المادة الى غرفة الطبع قال لها الموظف المسؤول عن الطبع . العفو ست لِمَ لم تناديني ؟ اجابته مللت الجلوس على الكرسي . وعادت لتجلس على الكرسي تقرأ الصحف وتلخص اخبارها . دخل الحارس مادا لها المفاتيح شكرته قال غسلتها اليوم بالصابون . قال هذه الجملة في الأسبوع الماضي . اعادت الشكر .

دخل موزع المقتطفات الصحفية وأشار بأصبعه الى المكان من الدفتر . وقعت بالاستلام . قلبت صفحات المقتطفات الصحفية . الأغبياء لا يفهمون . كرروا الخبر المنقول عن الوكالة الرسمية . اما التعليقات المهمة !! على غلاف المقتطفات وجدت رقم تلفون الوكالة . ادارت اقراص التلفون وصلها الصوت النسائي الذي لا يحسن التلفظ بالعربية طلبت منه الموظف المسؤول اعتذر عن

الاهمال ووعد بالاهتمام غدا تماما كما فعل بالأمس وقبل الأمس وقبله .

وضعت الملحق الأدبي جانبا . ستعود اليه حين تنتهي من العمل الرسمي .

تكدس عدد من الملاحق الأدبية فوق بعضه . تأسفت لأنها لا تجد وقتا للصفحات الأدبية .

دخل جارها الموظف الذي في الغرفة الملاصقة لغرفتها . حدثها اليوم عن الخبر . . اظنه قال هذا فهي لا تستطيع الاصغاء اليه كانت تفكر في التعليق الأخير الذي قرأته . اتراه يستحق التسجيل ام انه مبالغات وتهويش ؟

دخل الحاجب يسأل : ـ نعم ؟ أجابت بأن ما سمعه ليس جرس غرفتها .

جاء المسؤول عن الطبع اعطته يدها مادة جديدة للطبع . قال : تقرير هذا الأسبوع مرتب تماما .

متى سمعته يقول هذه العبارة ؟! في الأسبوع الماضي في مثل هذا اليوم . ما اليوم ؟؟ انه الثلاثاء منتصف الأسبوع وما بقي منه طويل .

رن الهاتف . لم تميز صوت المتكلم الا حين قال متى ستعطيني القصة التي وعدتني بها ؟

لقد تركت لها فراغا ويجب تقديم مواد الطبع غدا . اجابته حين انهي عملي الأسبوعي . قال ومتى ينتهي عملك الأسبوعي قالت في آخر الأسبوع قال ثم ؟؟ تذكرت ان الأسبوع التالي له سيبدأ بعمل الأسبوع التالي فوعدته بانجاز القصة في الأسبوع التالي . أي أسبوع يتلو أي أسبوع ؟؟ لا وقت للتفكير بقيت جريدتان من الخمسين جريدة اليومية وبقي من وقت الدوام الرسمي عشر دقائق فتحت الصفحة الثانية قرأت التعليقات الصغيرة . ليس فيها ما يثير الالتفات مع كونها مكتوبة بحروف كبيرة حمراء .

الصفحة الأخيرة تمدح مدحا رخيصا لا قيمة له سيأتي غدا صاحبها يذكرها بالمديح المجوج ويلوح الى مكافآت لن ينالها . ستقدم له الشاي وينصرف بعد أن يأخذ ربع وقتها . عليها غداً أن تعجل في قراءة الصحف بعد أن صار لزاماً ان تحسب حساب الزيارة التي ستستغرق ربع وقت الدوام .

الساعة الثانية ـ ارجعت الأقلام الى مكانها وكذلك أوراق المسودات ونظمت الطاولة . السيارة في الشمس ومكانها شديد الحرارة امسكت بخرقة التنظيف . ستشتري غدا غطاء جلديا تغطي السيارة ويقي يديها الشواء .

سألتها زميلتها أذاهبة الى البيت . أحنت رأسها ايجاباً ففتحت باب السيارة وجلست بجوارها .

تأخرت الزميلة قليلا قبل ان تبدأ حديث حالتها الصحية المتعبة وحين وصلت الى المقطع الذي يتكلم عن الغثيان اغلقت هي اذنها فالحديث عن الطفل المرتقب سيستمر الى ان يأتي الطفل والفترة الزمنية لهذا طويلة .

المرأة الملطخة الوجه بالاصباغ في مكانها المعهود . انحرفت عن الطريق الى اليمين فهنا الحفرة المعهودة . الحجارة المتراكمة تجعل الطريق ضيقا . السيارة التي خلفها تزعق . لا فائدة من الزعيق الطريق لا يتسع لسيارتين . اجتازت المنطقة الضيقة ومرت بها السيارة الزاعقة بغضب شديد . ليس اشد من غضب الأمس او قبله ولن يكون اقل من غضب الغد . وقفت السيارة طاعة للاشارة

الضوئية الحمراء . ستمد يدها لتدير المذياع . تصغي الى موجز الأخبار . ولكن زميلتها ستسرع بتغيير المحطة انها لا تـزال تبحث عن اغنية لفـريد الأطـرش وتشكر هي ربهـا للمرة المئة بعد الألف ان مذياعها لا يحب فريد الأطرش .

في البيت كـانت القدر عـلى النـار المـطفـأة . أشعلتها (أدارت مكيف الهواء في غرفتهـا) وذهبت تأخـذ حمامهـا اليومي . وحين عادت الى المطبخ كان الـطعام قـد سخن سكبتـه في الصحون المـطلوبة وحـين نشفت آخـر صحن ووضعتـه في مكانـه لم تكن غرفتهـا قد بـردت بعد ولـكن الحرارة الشديدة لم تعد شديدة . استـرخت على الفـراش تحـاول الا تستعيد احـداث النهـار . تحـاول ان تبعـد اي حـديث عن ذهنهـا لعله يستـرخي ولكنهـا كـانت تسمـع الأصوات وتقرأ الصحف وتكتب المادة وتقود السيارة وترى المرأة الملطخة الوجه بالمساحيق والألوان الواقفة في الشمس تنتظر . وجدت نفسهـا تتساءل كيف لا تـذوب كل هـذه المسـاحيق تحت الشمس الحارقـة ولا تنغسل تحت زخـات المـطر . المرأة نفسهـا تقف كـل يـوم في نفس المكـان من الرصيف وفي نفس المنطقة من الشارع وهي دائما وحدها لم

لا يأتي من تنتظره ؟ هل سيأتي ومتى ؟ أتـراها حقـا تنتظر احدا أم تظن انها تنتظر ؟

* * *

من الشرفة ومن بين الأشجار البعيدة بدأ خيط رفيع من الفضة المذهبة . هلال آخر شهر آخر ، أمان آخر ، خوف من شؤم وانتظار تفاؤل ، اغمضت عينيهـا وضعت عليهما يديها ، كفيها ، اصابعهـا ، تغطيهـا . لا تريـد ان ترى الهلال يطلع اول كل شهر بشكله النحيف اللامع لا تكاد تـــراه العـين حتى يختفي ويـــركض النـاس يفتشـــون عن الشخص الذي يتفاءلون برؤيـة الهلال عـلى وجهه ونـرى احيانا من نتفاءل بهم ونفشل احيانا في ايجـادهـم او العثور على صورتهم ونخشى فنتشاءم ام نرضى فنتفاءل وتمر أيـام الهلال ليكبر ويصبح بدرا ثم يعود ليصغر ويذهب وننتظر مـرة اخرى عـودته . لم يعـود الهلال اليـوم ؟ هل جـاءها بخـديعته الجـديدة ؟ يـوهمها انـه جديـد ! انه ابن اليـوم وسيكبر غدا وبعده وبعده ؟ هذا الكاذب الأكبر !المخادع الأول !! لم عاد اليوم يكرر لها حديث الشهر بـل الشهور والسنوات ! والعمر ؟!

وحين تذكـرت انها ستبدأ غـدا صباحـا تحسبه جـديدا ويوما تظنه جديدا قررت ان تعصي الغد . لن تذهب الى العمل ستخلق هي الجديد وتنتهي من خديعة الهلال التالي والشهر التالي واليوم التالي والصباح التالي والساعة التالية .

تريد أن تفتـح عينيها عـلى جديـد حتى لو كـان غرفـة جديدة ، حيطانها جديـدة ، لغتها جـديدة تتنـاول فطورا جديدا ، تعمل عملا جديدا ، وتذكرت البلد البعيـد !! البلد الذي احبته وتصورت نفسها في غـرفتها امـام موقـد النـار وبيدهـا كتاب سميـك وبخار الشـاي يتصاعـد من الفنجان والمكان ساكن لا ضيف طارىء ولا أغنية جيران تزعج ولا ساعة في معصمها تضرب ثـوانيها الثـواني . قد يدخل الكلب الصغير غرفتها واذا رآها ساكتة يرتمي تحت قدميها لاحسا ساقيها ويدخل القط الأسود ملقيا رأسه على ركبتيها يبدأ شخيره السعيد . اتذهب الى هذا البيت الذي مكثت فيه اطول فترة في ذاك البلد البعيد الذي احبت ؟ ام الى البيت الآخر الذي لم تكن صاحبته تمكث فيه غير فترة النوم ولم تكن فيه آلـة تلفون ولم يكن فيـه كلب وليس فيه قطة . وغرفتها تلك المملوءة شمساً وغطاء فراشها الزاهي

الألوان ، ترتمي عليه وتترك للشمس ان تدخل عروقها الى ان تغفو وحين تصحو يكون قد حان ، تماما وقت تناول شاي العصر اعدته صاحبة البيت ودخلت غرفتها على اطراف اصابعها كي توقظها بحنان .

كانت سفرة الشاي يغطيها كل يوم غطاء جديد وفناجين الشاي ذات النقوش الأربعة تتناوب أيام الأسبوع.

البيت الثالث كان الأقرب الى مدرستها حيث كانت رفيقاتها الغريبات مثلها يجتمعن لديها لشرب القهوة العربية . كانت تترك باب البيت مفتوحا وكذلك باب غرفتها وخزانتها كل شيء كان مفتوحا امام الصديقات ولا تنسى يوم عادت الى الغرفة لتجد الفراش والمنضدة والكراسي مغطاة كلها بعلب مغلفة بأوراق زاهية وبطاقة عيد ميلاد كبير مملوءة بتواقيع زملائها وزميلاتها ومدرستها . ذلك اليوم عيد ميلادها وهي نفسها قد نسيته وتذكرته احدى الصديقات فأخبرت الجميع وكان ان احتفل لها به . لأول مرة أحسّت ان لذكرى مجيء الفرد الى الحياة معنى وان بدء سنة جديدة أمر جميل وتذكرت أخيراً يوم سافرت واجتمع امام القطار الراحل كل الأصدقاء

والصديقات الغرباء والغريبات وانضم الى المودعين المدرس ابن المدينة في ذاك البلد البعيد الذي احبت . كم ندمت يومها للعودة وزاد ندمها وحنينها حين استلمت بعد وصولها الوطن بيومين بطاقة مرسوماً عليها تمثال يحتضنه كلب صغير ودموعه تملأ الأرض وفي كل دمعة او قربها ذكرت عبارة أفتقدك يا غاليا علي .

وتحت تلك العبارة اكثر من عشرين توقيعا للأصدقاء والصديقات والمدرس .

* * *

ستذهب الى ذلك البلد البعيد الذي احبت تتخلص ولو لفترة من صحف كل يوم ، ومراجعي كل يوم ، وصباح كل يوم ، وظهر كل يوم ، وانتظار ، انتظار كل يوم .

هبطت بها الطائرة ، وكان المطر غزيرا . صعدت السيارة المقلة الى مبنى المطار تنظر الى ما حولها .

سألها عامل الكمرك ان كانت تحمل بضائع ممنوعة ! عبارة جديدة لم تسألها في المرات السابقة . سألته وما الممنوع فأشار ببرود الى قائمة باللون الأحمر مكتوبة نصب

عينيها . هزت رأسها نفيا وسحبت حقيبتها تجرها . كانت ثقيلة . أين اختفى الحمالون ؟ عهدها بهم كثيرون . وصلت الى الباب الخارجي . قالت لسائق التاكسي ان يوصلها الى محطة القطار التي تقل الى ـ كامبردج ـ. وتساءلت طوال الطريق اي البيوت الثلاثة تلجأ اليه ؟ كل له ميزاته ، وله ذكرياته الحلوة . واستعرضت تلك الذكريات . عاشت تفاصيل ودقائق تلك الأيام والشهور .

القطار ينساب بها وهي لا تركز أفكارها في مقود سيارتها ولا يهمها ان تتحاشى الحفر والاحجار ولا تزعق سيارة تريد ان تفتح لها الطريق الضيق .

وتذكرت المرأة المصبغة الألوان الواقفة في منعرج الطريق . هل وجدت اليوم اليفا ؟ هل ذابت عنها المساحيق وعرفت نفسها على حقيقتها ؟

وقف القطار وبحروف واضحة تكررت اللوائح التي تحمل كلمة ـ كامبردج ـ

كأنها لم تغب كل هذا العمر عن كامبردج وكأنها تعود اليها حين كانت تذهب لقضاء النهار في لندن . وتركز كل

احساسها في عينيها . تفتش عن وجه تعرفه . عن الحمال الأشيب . عن قاطع التذاكر الذي يكرر كلمة شكرا بصورة اوتوماتيكية تتناسب واصابعه التي تقضم التذاكر .

الصف الطويل من سيارات التاكسي لم يكن واقفا في يمين ساحة المحطة . . كانت السيارات تقف الى الجانب الأيسر بعيدا عن النظر . كيف تشير الى السيارة ؟ كانت في الماضي ترى اول سيارة من الصف تتقدم وتقف امامها ويحمل لها السائق حقيبتها وتخبره عن العنوان . هكذا دون ان تفكر كيف استطاع معرفة ما تريد ، وهي لم تتفوه بشيء . اشارت بيدها نحو اقصى اليسار ، اشارت بيديها الاثنتين . . بذراعها ، تأملها الشرطي الواقف ولم يقل شيئا . عادت تشير فلم ينتبه لوجودها احد . حملت الحقيبة وجرتها . في طريقها الى السيارة لم يتأملها احد وعلى الأصح لم يحس بحيرتها ولا بوجودها احد . وواصلت سحب الحقيبة الى ان وصلت الى أول سيارة . اخبرت السائق عن اول عنوان خطر لها فأشار الى آخر الصف . هل معنى هذا ان السيارة الأخيرة هي صاحبة الدور الأول قالت هذا للسائق . فأشار برأسه ان نعم . ما ضره لو

خاطبها ؟ تريد سماع صوت بشري يكلمها . عادت تسحب الحقيبة الى آخر سيارة في الصف ففتح لها السائق وهو جالس باب السيارة الخلفي فرفعت الحقيبة وجلست بجوارها وذكرت له عنوان ابعد بيت عن المحطة .

اشجار الطريق صغرت ، قلمت اغصانها بصورة شوهتها ، اول مقهى على اليمين قرب مدرستها تحول الى ما يبدو انه مكتب للايجار والبيع . شجرة كبيرة تسد باب البناية التي كانت مدرستها . السائق لا يعرف تماماً طريقه فهذا شارع لم تره من قبل وفجأة تقف السيارة وتعجب هي ولكن السائق ينزل ويفتح الباب وينزل الحقيبة ويعرض لها الحساب مثلما سجله العداد . على يمينها تماما بيت يحمل رقم بيتها . باب الحديقة بني ، من غيَّر لونه ؟ . كان لونه دائماً اخضر . اعطت السائق اجرته وادارت وجهها صوب بيتها . هذه غرفة صاحبة البيت . اتراها غيرت الأثاث كما كانت تتمنى ؟ اقتربت من النافذة . لم يكن الزجاج نظيفا كعادته فلم تميز محتويات الغرفة . اقتربت اكثر واكثر . التصق وجهها بالزجاج وتسمرت عيناها على محتويات الغرفة . كانت خالية فارغة خاوية .

باب الحديقة الخشبي المغير لونه مردود دفعته فانفتح ، عبرت الممر الى الجانب الأيمن ومنه الى الممر الآخر المؤدي الى الباب الخلفي حيث تدخل مباشرة الى غرفتها . الباب موصد ، مغلق ، مقفل . تركت المشى الى الحديقة غطست قدماها ونصف ساقيها في الحشيش الأخضر اليابس . ماذا جرى لمستر ـ باك ـ فأهمل حلق الحشائش كعادته الأسبوعية ؟ اخترقت جدران الأعشاب . هنا شباك المطبخ حيث تجلس القطة مادة رأسها بكسلها الجميل . ولكنها لم تر غير الحنفيتين واقفتين منتصبتين مستقيمتين . صعدت الدرجات الثلاث . شرفة الجلوس بواجهتها الزجاجية حدثتها عن كل شيء . ركضت عبرها الى نهاية الشرفة حيث نافذة غرفتها بستائرها الزرق . لا ستائر تغطي اي شيء . غرفتها دون ستائر . اين ذهبت الستائر الزرق ؟ من أزال الستائر الزرق ؟ كيف لم تبق الستائر الزرق ؟وأدارت وجهها صوب الحديقة الخلفية الواسعة . هذه غابة . غابة آهلة بالضفادع والطيور والعناكب . اما مساحة نشر الغسيل فلم تستطع التعرف على مكان وجودها .

عـادت تسير . تمـر على الشـرفة والـدرجـات الثـلاث تهبـطهـا . طـالعتهـا الحنفيتـان الـواقفتـان المستقيمتـان المنتصبتـان ، اخترقت كتـل الحشـائش ، عبـرت الممـر ، وصلت البـاب الأمامي ، وضعت اصبعهـا تدق الجـرس وضغطت بكل قـوة تستطيعهـا . لم يكن للجرس رنـين ، امسكت اكرة الباب تديرها فدارت ولكن الباب لم يتحرك وحين لم تسمع صوت الكلب ينبح ، وجدت نفسها تقول بصوت عال هل البيت مهجور ؟

كانت تسحب حقيبتها بيد ثم تنقلها الى اليـد الأخرى حين تتعب الأولى ، من مات قبل الثاني مستر باك ام مسز باك ، لم هجرا البيت ؟ لم ؟ لم ؟ اين ذهبا ؟ الا يزالان في كـامبردج ؟ كيف تجـدهما ؟ كيف تجـد واحداً منهـما وأهل هـذا البلد لا يعرفـون حتى جيـرانهم الملتصقـة جـدرانهم ببعضها ؟

كانت قد اقتربت من البيت الثاني الذي سكنته . البيت الهـادىء الذي كـانت صاحبتـه تؤجر غـرفـة واحـدة منـه لتخفيف الوحشة عنها . وتترك بقية الغرف خالية انتـظارا لشقيقتهـا الكبرى ان تـأتي من ـ نيوزلنـدا ـ كانت تعـرف

شقيقة صاحبة البيت وزوجها من الصور المعلقة في غـرفة الضيـوف ، الغرفـة التي لم تدخلهـا الا مرات قليلة حـين تدفع . اجرة غرفتها الشهرية .

فغـرفـة الضيـوف تلك معـدة لـلاستقبـال . استقبـال الشقيقــة الكبـرى وزوجهــا اللذين سـوف يـأتيـان من نيوزلندا .

كانت غرفة الضيوف مضاءة اليوم . هذا امر واضح . الضوء يملأ الغرفة . هل وصلت الشقيقة الكبرى اخيرا ؟

دفعت بـاب الحديقـة وهرعت الى الشبـاك ، الستـائـر مسحوبة . ماذا ؟ هل نسيتها صاحبة البيت ام ان شقيقتها لا تحب اسدال الستائر ؟ الصقت وجهها بالزجاج . كانت هناك فتاة صغيرة ترتدي البنطال واقفة امام لوحة الكـوي تضغط بكل قوتها على مكواة تمددها على فستان احمر . من هذه ؟ لم تسمع ان للشقيقة الكبرى ابنة . فمن هذه ؟

دخلت فتاة اخرى لافة رأسها وتلبس روب الحمـام ابنة ثانية ؟ ولمن ؟

في الغرفة سريران . ليس عـلى الحائط صـورة للشقيقة

الكبـرى ولا لزوجهـا . صوت عـال يصدر عن مـذياع . مـوسيقى لا يمكن لصاحبـة البيت ان تتـذوقهـا او تـرضى بعزفها في بيتها . رفعت رأسها الى فوق ، الى حيث غرفة نوم صاحبة البيت ، تلك الغرفة مضاءة ايضـا ولا ستائـر تغـطي النـافـذة . تـريـد تسلق الحـائط . رفعت رأسهـا ورفعتـه . أوجعها عنقهـا ولا حركـة تصـدر عن النـافـذة العليا . والنور لا يزال ينبعث منها . باب البيت غير ملمع كما كان عهدها به . أكرة الباب غير ممسوحة . وتـذكرت حقيبتها على الرصيف عادت اليه حملتها تسحبها .

من يسكن غرفتها ؟ ومـاذا حدث للشقيقـة الكبرى ، ماذا حدث لكل شيء ؟ لكل شيء ؟

مرت بها سيارة فأشارت للسائق توقفه . اعطته عنـوان البيت الثالث الذي اقامت فيه فترة . وقفت السيارة ونزل السائق يفتح لها الباب وقبـل ان تديـر وجهها نحـو البيت اغلقت الباب وقالت للسائق اوصلني الى المحطة . وبأدب جم صعد السائق وأدار المحرك وتمنت لو يسألها لم غيـرت رأيها ولكنه لم يفعل .

مدت يدها تهز كتفه . قال : نعم .

قـالت : قف امام أي بيت ، امـام اي بيت ! قبل ان تصـل المحطة ، وبـأدبه الجم أيضـا وقف امـام اول بيت صادفه . نزلت وطلبت من السيارة ان تنتظرها .

مشت بخطوات سريعة لاهثة ووقفت امام باب . باب لونه ابيض . هكذا كان لونه في الماضي . ستائـر خضراء مسدلة . هكذا كانت دائما . باب المطبخ مشقـوق تنبعث منـه موسيقى هـادئة . لا شـك انه كـان هكـذا دائـماً فى الماضي . الطابق العلوي مـظلم . نعم . نعم لم يكن غير هكذا في الماضي . اتسع شق باب المطبخ وانفتـح وخرج منه رجل . تطلع اليها . قـالت له : قـل لي ألم يكن كل شيء هكذا في الماضي ؟

ولكنه مشى فلحقت به وهي تصيح هذا بيت لم يتغير فيه شيء ! هذا بيت ابقى على الماضي . هكذا كان دائما هذا البيت . واصل الرجل سيره ووصلت هي الى السيـارة . قال السائق : هل حدثتني ؟ . قـالت هذا بيت لم يتغـير . فسكت . اجابته هذا البيت الرابع لم اسكن فيه .

وبأدبه الجم ، كذلك ، لم يجبها .

ولكن الحلم لم يعُد

ضرب الضوء عينيها ، اشتد الضرب ، فتحتهما .

كان الشباك الخشبي مفتوحا والستارة منزاحة .

اغلقت بصرها ، الشمس ساطعة تضرب عينيها وهي تمشي على سجادة من الحشائش الخضراء النظيفة المغسولة بمياه المطر . وتساءلت كيف تسقط الأمطار بهذه الغزارة وتسطع الشمس بهذه القوة ؟

فتحت عينيها ، الضوء يدخل غرفتها من الشباك المفتوح مدت يدها تريد اغلاقه ولكن يدها لم تصل الى حيث الستارة . ارادت القيام من فراشها ولكن السير على الأرض الحشيشة مريح ، تغطس فيها اقدامها والشمس دافئة تدفعها الى الاسترخاء ثانية .

ضوء النافذة يضرب عينيهـا يزعجهـا ، ادارت وجهها الى الصوب الثاني .

المـطر يتسـاقط والحشيش ممتـد والنـاس آتـون يحملون صحفا عليها عناوين بارزة لا تستطيع قراءتها .

اي خبر مهم تحمل صحف اليوم ؟ ماذا حـدث للعالم العربي ؟ ليته يحمل جديدا مفرحا . . جرس يرن بشدة ، أيحمل رهط الناس أجراساً ؟ دقات تضرب أذنيها ، في هذه الصحراء الحشيشية من أين تأتي الأجراس ؟ ومن أين يأتي القرع ؟

تفتح عينيها ، ضو الشباك يضربها وصوت آت بدقات متوالية . تسمع نفسها تقول : نعم .

صوت ينادي : يطلبونك على التلفون ؟

تمد يدها تمسك بقبضة من الزهور الحمراء . امتـلأت الأرض الحشيشية زهورا حمراء ، ولكن يدها صارت تحمل زهورا صفراء ذابلة . كـل زهرة حمـراء تصل يـدها اليهـا تصبح صفراء ذابلة . هذه وتلك وأولاءك واختفى الناس واختفت الصحف واختفت العناوين .

الطرق مستمر . نظرت الى رسغها الايسر . الساعة التاسعة . الساعة التاسعة ! كان يجب ان تكون في العمل . ما اليوم ؟ انه يوم عطلة . يستمر الطرق . من يوقظها في هذا الوقت المبكر ؟ الساعة التاسعة انه وقت متأخر ، مر على بدء الدوام اليومي ساعة وهي لا تزال في البيت .

كان الممر الى التلفون معتما . اين ذهبت الشمس ؟ تحس بالبرد . اين ذهبت الشمس . الصحف مكومة بأيدي الناس لا تستطيع قراءة عناوينها .

امسكت التلفون ، قالت نعم ، سمعت صوتا يقول : هل ايقظتك ؟ ولم تدر ماذا تجيب . منذ متى هي مستيقظة ام تراها لا تزال نائمة .

اختفت الشمس . الأرض البلاطية تحت قدميها عارية ولا صحف حولها .

عاد الصوت سأل : هل عرفتيني ؟

قالت : متى وصلت من السفر .

ـ اذن عرفتيني . كيف عرفتيني بعد كل هذه السنين : لم

اكن ادري ان ذاكرتك بهذه القوة .

ـ مصيبة ذاكرتي انها بهذه القوة . متى ، سأراك ؟

ـ غدا هل يمكنك تمضية اليوم معي ؟ تعالي نتحدث ، لدي الكثير من الكلام ، ليكن استمرارا لحديثنا الماضي .

كانت قد وضعت سماعة التلفون وكلمة ماضي تطرق اذنيها .

من اين جاء هذا الماضي ؟ اهكذا يأتي الماضي البعيد . الماضي البعيد الجميل يوقظها ؟ انه بعيد بعيد فلماذا عاد ؟ هل سيصبح حاضرا ؟ حاضرا جميلا ام قاسيا ؟

استلقت ، استرخت ، اغمضت عينيها ، رفعت الغطاء الى ما فوق رأسها . عتمة تامة . لا شمس ولا امطار ولا حشيش اخضر ، او زهور حمراء .

لو بقيت نائمة ماذا كانت ستقرأ في الصحف التي تحمل عناوين كبيرة ؟

قدماها باردتان . أهو اثر البلاط الصقيعي عالق بقدميها ولا غطاء قادر على بعث الدفء ؟ كتفاها باردتان ، كفاها باردتان . مدت يدها تحكم الغطاء . لا

فائدة . . لا فائدة الحلم لن يعود .

ليس من طريقة للاتصال بصديقتها . لم تسألها أين هي كيف انقطع الكلام هكذا فجأة ؟ لم . . لَم لم تحدثها طويلا ؟ الغد بعيد بعيد وألف حديث في نفسها ، اليوم ، الآن ، اللحظة .

كان صوت صديقتها طربا فرحا فأية اخبار حلوة تحمل ؟ هل سمعتها تقول : ليكن حديثنا استمرارا للماضي ام انها سمعت هذا ؟

لم يقل الناس الحاملو الصحف اي شيء . جاؤوها من بعيد يحملون عناوين كبيرة لا تستطيع قراءتها .

ركضت الى صحف الصباح . قرأت العناوين .

لا جديد . . . لا جديد في العالم العربي . اليوم عطلة سترتاح من العمل ولكن الى أين ؟ الحلم ذهب وتحولت ازهاره الحمراء اليانعة صفراء ذابلة .

فتحت كفها كانت بلا شيء ولا حتى زهرة ذابلة ، ومن النافذة لم يكن يصلها نور . غطت الغيوم الشمس وعاد صباحها الى العتمة .

تطلعت الى ما حولها ، احست بغربة قاتلة كانها ترى ما حـولها لأول مـرة . لم هي مـوجـودة هنـا ؟ منـذ متى هي موجودة هنا ؟ وصديقتها التي جاءت تحمـل اليها المـاضي ماذا تريد منها ؟

لَمَ لم تدعها تستمتع بالحلم الأخضر المشمس الدافي ؟

عاد صوت المطر ولكن الشمس لم تكن مشرقة . صوت زخات المطر يطرق النوافذ ، هل يناديها احد ؟ هل تـريد ان يناديها احد ؟

اشتد احساسها بالبرد وزاد صوت انسكاب المطر قوة ، وعمق حسها بالغربة .

مـاذا بقي من الماضي لتحـدث صديقتهـا عنـه . هـل انقطع ؟ اكان موجوداً اصلا ؟ اتراه مستمرا ؟ وخشيت ان تفكر هل كان جميلا .

عمق احساسها بالبرد وازداد قرع الزخات. هل تسمع اصواتا تناديها ؟ واحست بغربة شديدة .

كانت دائما تحب السير تحت المطر تحمل الشمسية وتفرح بالسيول تغطي قدميهـا . المطر يـدعوهـا للخروج ، هـل

تبدأ العودة الى الماضي بالسير تحت المطر ؟

في الخارج كان الزخ قد أصبح رذاذا والشمس تلوح وتغيب بين الغيوم . السيارة تسير بها . نسيت انها تريد السير تحت المطر .

أين تذهب الآن ؟ هل تمشي في شوارع المدينة كما كانت تفعل هي وصديقتها ؟ اليوم عطلة والمحلات مقفلة والناس في بيوتهم يطلبون الدفء .

وصلت منطقة حيث أكثر بيوت معارفها . وقفت عند أول عمارة تعرف أحد سكانها .

قوبلت بترحاب . كان أصحاب البيت مستوحشين فجاءتهم حلماً كما قالوا يؤنس وحشتهم . هل تستطيع ايناس وحشتهم ؟

وأحسّت بغربة شديدة . كل من حولها يتحدث وتظن انها كانت تجيب ولكنها لم تستطيع التركيز على فكرة واحدة ، تدري انها تكلمت وسمعت ثم . ثم أكلت ، نعم تظن انها تغدت عندهم ولكن الحسّ بالوحشة والفراغ كان غارقا .

فجأة وجدت نفسها تقول انها متفقة مع أصدقاء للذهاب

إلى السينما ، لا تدري ما الذي جعلها تقول هذا ولكنها قالته ونفذته .

وفي صالة السينما المعتمة جلست وحدها في المكان المملوء بالصغار . هذه حفلة عصرية في يوم عطلة . حاولت الانتباه للفيلم ولكن صوت الصغار علا وعلا وغطّى على صوت الممثلين .

صور الأطفال الضاحكة الفرحة غطّت على مشاهدة الفيلم .

الصالة غارقة في الظلام والصغار مسمّرة وجوههم على الشاشة . حوار فيلم وضحك الأطفال يعلوان ويعلوان كالزعيق يرعب أذنيها .

وأحسّت بوحشة قاتلة . غريبة بين صغار يستمتعون بفيلم لا تستطيع مشاهدته .

هل جاء الظلام من خارج الصالة ؟ لا تستطيع قراءة عقارب ساعتها .

في الخارج كان الغروب قد بدأ يمتد ، وزحف الساهرين

لم يبدأ بعد ، هذا وقت يصلح لخروج الصغار وللكبار فأي هي منهما ؟

لم جاءها صوت صديقتها اليوم ؟ كانت بعيدة بعيدة والحلم في متناول يدها . أيهما أبعد من الآخر ؟

وأحسّت بغربة خانقة . هذا الطريق ليس لها . هؤلاء الناس ليست منهم . البيت بعيد متى تصل إليه ؟

وصلت سيارتها وأغلقت الباب وأحسّت ببعض الطمأنينة انها وحدها ، لعل الوحدة تخفف وحشتها .

وعلا صوت محرك السيارة وتعاقبت اضواء السيارات الأخرى .

عبرتها الأضواء ومرت عليها اصوات المحركات .

بَهرت عيناها وشقت اذنها الأصوات والطريق الى البيت يبدو طويلاً لا يريد ان ينتهي .

وعاد الحس بالوحشة يقتلها هل تقف ؟ هل تمشي ؟ متى تصل ؟

غدا ستلقى صديقتها . ما تراها ستقول ؟ لم جاءت من ذاك الماضي البعيد ؟ لم ايقظتها من الحلم ؟ لو بقيت نائمة

ماذا كانت ستقرأ في عناوين الصحف التي يحملها الناس ؟

غداً . . . غداً يوم عمل كيف لم تتذكر هذا ؟ كيف تخبر صديقتها بهذا ؟

كيف نسيت ان الغد يوم عمل وليس عطلة تتصرف بها ؟

وصديقتها اين هي ؟ هي منذ سنوات في الغربة ، فكيف لم تخبرها عنوانها هنا ؟ كيف الوصول اليها ؟ كيف . . ؟

صوت دقات على الباب . . الحلم يعود ! . . الحلم يستمر ! قفزت من فراشها . . هرعت الى التلفون رفعت السماعة ليس هناك غير ازيز متواصل .

سألت من ناداها ؟ ولكن لا جواب .

اصغت الى ما حواليها فلم تسمع الا الصمت .

عبرت الممر المعتم كل الأبواب فيه موصدة . اهل البيت كلهم نيام ، من أيقظها ؟

تطلعت الى الساعة كانت تشير الى الخامسة . أهذا صباح ام مساء ؟

ولكن الصمت لم يجب .

عـادت الى الفراش سحبت الغـطاء واغمضت عينيهـا بشدة وحدقت بحدة وانتظرت ، ولكن الحلم لم يعد .

1973

كان وكان .. وكان

في واجهة العرض الزجاجية عدد من الفساتين الجميلة . ذاك لونه محبب لديها والآخر أحدث صرعة في الأزياء الحديثة وثالث عملي يصلح لكل يوم فأيهم تختار .

غرفة الهاتف العمومي فارغة دخلت اليها وضعت قطعة النقد وأدارت الأقراص . . ورن التلفون وانتظرت ان تسمع صوته لتسأله اي الفساتين تختار . يجب ان تفضل فستانا باللون الذي يحبه هو .

ورن الهاتف . . ورن ورن لا من مجيب . أين تراه الآن ؟

المفروض انه في البيت ، هذا يوم عطلة بالنسبة اليه كذلك فأين خرج ؟ ولِمَ لم يخبرها ؟

عـادت الى واجهة العـرض وحين لم تـر لونـه المفضـل تركتها وسارت .

اليـوم عـطلة ستمضي فتـرة منـه تتفـرج وتشتـري مـا نشتهي .

امس استلمت راتبها الشهري وهي سعيـدة ، شهيتها للحياة عميقة ودنياها مملوءة رضى .

وقفت امام واجهة الكتب . لقد ترجم الكتاب ـ الذي ملأ الحديث عنه صفحات المجلات ـ الى العربية وتستطيع قـراءته الآن . لـو كان هـو في البيت لأخبرتـه عن ترجمـة الكتـاب الذي ينتـظران . لم هو ليس في البيت ؟ واجهـة امامها ملأى بالأدوات البيتية بعضها مغر كثيرا . هل تبدأ شـراء حاجيـات البيت وحدهـا ؟ ذوقه رائـع في الاختيار وحاجيات بيتهـا ستعجب الأصدقاء الذين يعرفون ذوقهـما المشترك المتشابه الحلو . لم هو ليس في البيت ؟ لم هو ليس معها يشاركها اختيار حوائج المستقبل ؟

مـرت بهـا سيـارة تشبـه سيــارتـه . نفس اللون نفس النوع . مدت رأسها ولكن السيارة عبرتها بسرعة .

وأحست انها بحاجة الى العودة للبيت . اصبحت لا تستطيع اختيار شيء وحدها تريد رأيه ومشاركته وذوقه ونظرة الحنان من عينيه تعلنان رضاه .

وصلت البيت وبينما هي تستعد للسهرة رن الهاتف وسمعته يسأل هل آتي لاصطحابك فاستمهلته بعض الوقت لتكمل زينتها وتأملت نفسها في المرآة طويلاً قبل ان يأتي للقائها .

في المطعم قدمت لها قائمة الطعام فاختارت صحنا سعره غير مرتفع فنظر اليها معاتبا ولم يقل ما اعتاد ان يقول اذ كان النادل ينتظر الطلب ، وحينما ابتعد عاتبها بصوته الحنون على مبالغتها بالتوفير . اجابته انها لا ترضى ان يهدرا مالهما . لم لا يدخرانه للمستقبل ، للبيت ، للاولاد ، للشيخوخة الحلوة ، لكل ما هو آت سعيد ؟؟

قالت فجأة : رأيت اليوم سيارة قرب المكتبة تشبه سيارتك تماما ، وعلى فكرة اين كنت اليوم خابرتك فلم اجدك في البيت ؟ .

اجاب : كنت في السيارة التي حسبتيها تشبه سيارتي . تمنت لو لم تسأله اين كان .

كان عليها ان تحضر في اليوم التالي افتتاح مؤتمر وقالت له انها ستتأخر عن موعدها المسائي اكثر من ساعة لأن البرنامج كثيف .

وفي الطريق ، في المرآة الصغيرة لسيارتها ، رأت صورة كبيرة واضحة .

رأته هو نعم رأته هو بعينه وسيارته تسير وراءها وبجانبه رأس امرأة . اشارت اليه فلم يرها كان منشغلاً بالحديث مع جارته . ابطأت في سيرها لعل سيارته تحاذيها ولكنه انعطف الى شارع جانبي واختفى عن نظرها .

حين التقت به سألته ضاحكة : من هذه الحسناء التي كانت بجوارك ؟

قال بكل هدوء : امرأة تحتاج مساعدة . . فقاطعته أنا لم أرها تماما فهل هي حسناء ؟ اجاب : حين تلتقين بها ؟ تقررين انت درجة جمالها .

تعجبت ، لم يريدها ان تلتقي بها ، ولكنها رأت ان تغير الموضوع فالحديث عن الآخرين يعكر صفو جلستهما الدافئة .

في المكتب وصلها امر حكومي بزيادة راتبها . طربت للخبر انه تقدير مادي ومعنوي .

احست بحاجتها الى اخباره سريعا . سمعت في مكتبة رنين الهاتف ويتوقف الرنين ثم صوته يقول : تفضلي يا عزيزتي . . . ثم قال : نعم . وجدت نفسها تسأل : من هذه العزيزة .

ضحك عاليا وسأل : ألهذا تكلمينني قالت : لا . . لا ولكني ولكني . . ثم صمتت .

ليومين متتاليين رأت صدفة سيارته في مكان واحد غير قريب من بيته ولا من مكتب عمله .

وفي اليوم الثالث مرت متعمدة قرب ذاك المكان فوجدت السيارة واقفة .

سألته في اليوم الرابع عما يوقف سيارته في ذاك المكان فقال زيارة صديق مريض .

في اليوم الخامس سألته عن صحة المريض فقال ان اهله اخذوه الى أوروبا لاجراء عملية جراحية .

في اليوم السادس كانت سيارته في نفس المكان فلم

تسأله عن سبب وقوفها ولكنه رأى اسى على وجهها سألها عما بها قالت انها متعبة وعلى ذكر التعب علق بأنه زار اهل صديقه المريض يسألهم عن اخباره . فلم تعلق بشيء وازداد الاسى وضوحا على وجهها .

بعد اسبوع كانت احدى دور السينما تعرض فيلما جيدا فأخبرته عنه قال انه لا يستحق المشاهدة فقد ترك الصالة في منتصف العرض . لم تسأله متى ذهب للسينما ، ومع من ترك الصالة .

في طريق عودتهما لايصالها الى البيت ، مرا على المكان الذي يوقف فيه سيارته ادارت رأسها لتكلمه واذا برأسه ، كل رأسه خارج النافذة يتطلع نحو البيت ، يكاد يصطدم بالسيارات والعواميد .

لم يكلمها بالهاتف في اليوم التالي . لم يبدأ نهاره كعادته (يأخذ البركة) فقررت إلا تبدأ هي مكالمته ومر يومان لم يكلمها فيهما وتعجبت ، واستغربت ، ثم قلقت، فسألت . اخبرها الحاجب انه مريض منذ ثلاثة أيام . أسرعت تسأل عنه في بيته اجابها صوت انثوي . ولم تدر كيف اغلقت الهاتف رأسا دون ان تنبس بكلمة .

وبعـد دقائق اعـادت الكرة واتصلت بـه فأجـابهـا هـو بصوت ضعيف واهن .

عتبت عليه عدم اخبـارها مـرضه فقـال انه اراد عـدم اقلاقها سألته عمن يعتني به فقال لا احـد لأن اهل البيت مسافرون منذ اسبوع . عادت تسأله هل هـو وحده تمـاما فأجابها بصوت حاول ان يخفي غضبه بأنه وحـده ويفضل ان يكون وحده في حالة المرض .

تمنت لو تستطيع زيارته ولكن البيت كما يقـول ، فارغ من بقية سكانـه وهي ، لا تستطيـع زيارة رجـل وحيد . فمن تراها صاحبة الصوت الناعم ؟ صاحبة هذا الصوت سمحت لنفسها ان تزور رجلا وحيدا في بيته وهو . . هو لم يـر في هذا أيـة غضـاضـة ولم يتحـدث عن وجـودهـا . . يساعدها على اخفاء نبأ زيارتها !

وتمنت لـو يشفى سريعـاً . لم تدرِ هـل اهتمـاماً منهـا بصحتـه ام رغبة بـرؤيته او ابعـادا لـه عن ذات الصـوت الناعم .

واخيرا شفي ، واجتمعت معه في حلقة تضم مجموعـة

اصدقاء مقربين . تحدثوا عن فترة مرضه وكيف تحملها وحده وانه جبار يتحمل كل تلك الآلام وحيدا . وانتظرت ان يشير احدهم الى وجود صاحبة الصوت الناعم فلم يفعلوا . وفي آخر الجلسة سمعته يطلب ممن يجاوره ، عدم اخبارها هي عن ذاك الموضوع .

النهار التالي كان يوم عطلة ذهبا يمضيانه في مكان جبلي مشهور بآثاره القديمة السياحية .

وحين التقيا قال ان فتاة اجنبية ستصحبهما لرؤية المنطقة الأثرية .

هكذا فجأة ومن دون مقدمات توجد فتاة اجنبية تريد زيارة آثار الشرق .

من اين جاءت ؟ ومن هي ؟ ولم تصحبهما ؟ اسئلة لم تبح بواحدة منها وتألمت اذ عرفت سبب اختيار هذه المنطقة بالذات للزيارة .

الفتاة الأجنبية لم تكن اجنبية . جنسيتها اجنبية ولكنها تتحدث العربية بطلاقة .

كانت متحمسة جدا لرؤية الآثار وهي تزور وطنها الأم

بعد غياب طويل وتحمس الدليل لحماستها فبدأ يسرد اخبار الآثار . هنا كانت كنيسة . وهنا كان المذبح . هنا كان يجلس المصلون. وهنا كان عرش الملك . هنا كانت غرفة الملكة . وهنا ، كان . . ، كان ، كان . . كل شيء كان وكان .

وجدت نفسها تعود الى السيارة تنتظر ان ينتهي الدليل من سرد اخبار ما كان .

وطال انتظارها قبل ان يعود هو والأجنبية التي جلست بجواره بصورة طبيعية قد اعتادتها .

مساء ذاك اليوم لم تستطع النوم . ربطت الاشياء ببعضها فبدت طبيعية وفصلتها عن بعضها فبدت طبيعية .

حين سألها اين يلتقيان اجابت انها متعبة وتريد الراحة في البيت قال انه سيأتي لزيارتها فردت انها لم تتعود زيارة رجال غرباء. قال : تتحدثين عن الغرباء ولم تدر كيف اجابته : كنت قريبا .

ولأيام ثلاثة متوالية يتصل بها يسأل عنها فتجيب بأنها لا تزال متعبة . ويستفهم كيف تذهب الى العمل وهي متعبة

الى هذا الحد فتعلل ذلك بحسها الشديد بالمسؤولية .

في اليوم الرابع سألها : اليس في نفسك حس بالمسؤولية تجاهي ؟ هل العمل أهم مني ؟ أنا في حاجة لرؤيتك ؟ .

اجابت : ألم يعد صديقك المريض ؟ الا تزورك ذات الصوت الناعم ؟ وهل انتهت المناطق السياحية ؟ وعزيزتك الا تزورك في المكتب ؟ وصاحبة الحاجة هل انتهت مشاغلها ؟ وصديقك الا يزال قادرا على كتم الخبر عني ؟

أجاب ذاهلاً : ما هذا الذي تقولين ؟ ماذا جرى لك ؟ عمن تتحدثين ؟ هل تكلمينني أنا . . أنا !!

كان يدق الباب بعد دقائق وفتح معها الحديث لحظة جلوسه قال انه يريد ايضاحا عن كل ما قالت . اجابت انها لا تريد ايضاحا عما فعل لانها متعبة .

اقترب منها وامسك يدها وتأمل وجهها، فلم تر الحنان في عينيه ولا في ابتسامته ، ولا في يديه .

قال : يا عزيزتي انت واهمة .

سألت : هل انا عزيزتك ؟

قال ان الوهم نسج في خيالها قصصا غريبة وما سبق وقاله لها هو الصحيح فهي واهمة واهمة . تأملته ولكن الوهم لم يكن وهما في نفسها .

سأل ان تخبره القصة ، ماذا تظن وماذا تتوهم وماذا يجول في رأسها الغالي .

سألته : أتراه غاليا .

توسل ان تصغي اليه والا تضيع عاطفة عمر بسبب وهم متعب .

قالت : ما تسميه وهما احسه حقيقة . حقيقة متعبة وانا الآن اعيش هذا اليقين المتعب .

ـ ولكنها اوهام انها اوهام .

ـ ولكن كيف استطيع ان ازحزح الحقيقة ؟ كيف استطيع جعلها اوهاما .

ـ لأنها اوهام صدقيني .

ـ انا الآن اصدق نفسي .

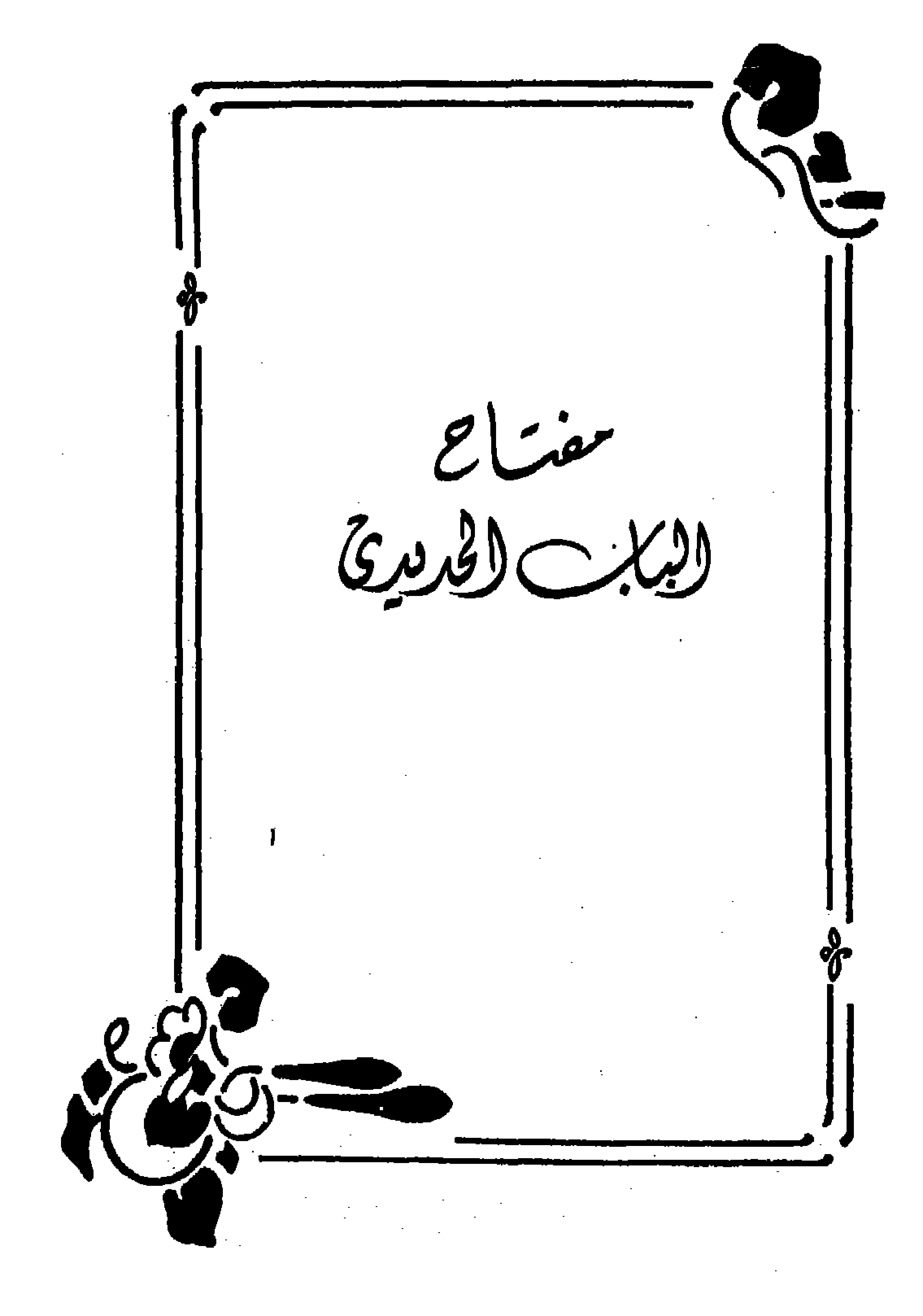
وقف وتطلع اليها فلم ترفع رأسهالتلتقي بعينيه .

قامت الى غرفتها واستلقت على الفراش كانت تحس انها مريضة تماما .

تأملت السقف ، وتأملته . رأت حشرة ملتصقة عليه سحبت الغطاء ورمته عليها ، فلم تطر الحشرة وقفت وتطلعت فوق ، واذا الحشرة خدش على السقف .

عادت تستلقي وحسها بالمرض يزداد وعاد نظرها الى السقف واذا بالحشرة لا تزال قابعة هناك . لم ترم شيئاً تكش الحشرة به واكتفت بالنظر اليها تنتظر منها ان تطير .

1970



مفتاح الباب الحديدي

كان عدد الناس يتضاءل وكثافة الظلمة تزداد وهي تسير في الغابة .

لم يكن الوقت متأخرا فلم اسرعت الظلمة في المجيء ؟ اكوام من الغيوم تتراكض وتهجم . . الأشجار متقـاربة او متلاصقة تحمي بعضها البعض . لقد تعودت الأشجار على جاراتها وهذا سر استمرار نموها ولولا هذه الجيرة لاختنقت الأشجار غربة .

هل الطريق الـذي تسير فيـه يؤدي الى المنتجع ؟ قـال مدير الفندق ان الغابة شاسعـة وهناك سيـاج خاص يحيط بالفندق وذكرهـم بأخذ مفتاح باب السياج الكبير اذا فكروا بـالعودة متـأخرين لأن البـاب يقفـل اذا جـاء الـظلام ثم

نصحهم الا يتأخروا لأن دروب الغابة خادعة تضيعهم من حيث لا يدرون .

مر بها الناس ، استوقفت احدهم تسأله ان كان طريقها الى المنتجع صحيحا . تكلمت بالعربية ثم بالانكليزية فهز الواقف رأسه غير فاهم ما تقول .

فالى اي اتجاه تسير . يمينا ام يسارا ؟

منذ مجيئها لم تحدث الا أفراداً قلائل يعرفون بعض الفاظ انكليزية . ليتها هكذا فجأة تجد نفسها في بلد عربي !! وسمعت نفسها تغني بأعلى صوتها احدى اغاني بلدها .

كانت الأغنية العربية حزينة تشكو من الوحشة والضياع .

سارت مسافة وهي تغني ثم تلفتت حولها فلم تجد احداً فاستمرت في الغناء ورددت اغاني كثيرة كانت كلها حزينة نادبة مستسلمة . وبدأالحزن ينفجر في اعماقها . فتشت عن أغنية مفرحة ، اغنية سعيدة ، اغنية ضاحكة فلم تسعفها ذاكرتها . . هل خلت الأغاني العربية من الفرح ام

ان الوحشة في اعماقها لم تذكرها بغير الحزن ؟

الظلام يشتد والبرد يلسع قـدميها ووجههـا . ادخلت يديها في جيوبها ولكن الدفـء لم يصل الى قدميها . كانت تغطس في أكوام من الوحل .

أسرعت الخطو والغابة هي الغابة بظلامها وصمتها .

تطلعـت الى مـا حـواليهـا . أين السيـاج الـذي يحيط بالفندق ؟ هل هو إلى اليمين أم إلى اليسار ؟

مدت يديها تتلمس ماذا ؟

وصـل الطين الى ساقيهـا ورذاذه الى ثيابهـا عادت تقف ، لم يعـد في الغابـة بشر وأخـافهـا انها بـدأت تحس بالخوف .

اكوام الغيوم المجتمعة فكرت بالانسياب فبـدأت رذاذا ثم اشتد هطولها ودخل البرد جسمها فلم تعد الثياب المبللة تقيها البرد .

هـل تقف ؟ هل تـواصـل السـير ؟ ولكن مـا الاتجـاه الصحيح يسارا ام يمينا ؟

ودون ان تستمر في التفكير واصلت السير وواصلته .

من بعيد بدا لها من بين الأشجار المتقاربة والمتلاصقة شيء يشبه الضوء . سارت نحوه ومن خلال الظلام الكثيف وجدت السياج .

السياج دائري وسيؤدي الى الباب حتما مهما كان اتجاه سيرها الى اليسار ام اليمين .

دارت ودارت ودارت حول السياج تتلمس بعينيها واصابعها وسمعها مكان الباب فلم يعلن الباب عن وجوده . . الظلمة تزداد والخوف يشتد والبرد يعمق .

قسم من الحائط بدا غير مشابه للاقسام السابقة ركضت الى الباب بلهفة مدت كل جسمها لتفتحه ولكنه كان مغلقا وبصيص النور يصل من بعيد فكيف الوصول اليه ؟

لم تكن تحمل المفتاح مدت يدها تحاول فتح المتراس ولكنه كان محكم الغلق بالمفتاح المعلق في مدخل الفندق .

تلمست اصابعها حوالي الباب فلم تجد جرسا . ضغطت على كل النتوءات التي وجدتها فلم يتحرك نتوء . لعل احد هذه النتوءات جرسا وقد سمعه سكان الفندق البعيد . انتظرت ثم ضغطت ثانية على نتوء آخر وآخر

وآخر فلم يأتها الانتظار بشيء . . هل تصرخ ؟ هل تنادي ؟ من تنادي وليس في الفندق من تعرف اسمه كلهم غرباء جمعهم الفندق الواحد .

هزت الباب الحديدي بكل قوتها فأحدث صوتا بدا لها قويا . لعل من في الفندق سمع الضجيج فانتظرت وعادت تهزّ الباب الحديدي وتنتظر فأوصلها الانتظار إلى انتظار .

تذكرت قول مدير الفندق للسياح بابان .

هناك باب آخر ! هناك باب آخر !

وعادت تسير وعادت تغطس في الوحل واستمر المطر واستمر الخوف وهي لا تدري أتسير يمينا ام يسارا وأين الاتجاه الصحيح ؟

سارت لا تدري كم واصبح بصيص الضوء اكثر بعدا ولكنها وصلت الى الباب الثاني . وعادت يداها تحاولان فتح الباب والبحث عن الأزرار وعادت اصابعها تضغط على كل ما ظنته زرا وعادت تنتظر ولكن الصمت كذلك عاد .

صرخت بأعلى صوتها (هيه) ولكن النداء ضاع بين

الاشجار المتقاربة والمتلاصقة . . لم يكن هنا صدى يردد نداءها .

وعادت تصرخ بصوت أعلى وأعلى وعاد الصمت يجيب ويجيب ويجيب .

استعرضت الوجوه التي تعرفها في الفندق من منهم يمكن ان يسعفها ؟ بعضهم الآن في غرفته المغلقة النوافذ بطبقتيها الزجاجيتين المانعتين للبرد فكيف لصوتها ان يصل ؟

الآخر يلعب البليارد وقد ركز كل انتباهه على الكرات يريدها ان ترتطم فكيف يبعد سمعه عن هذا ليسمعها ؟ في القاعة المخصصة للتلفزيون صوت المذيع يعلو على كل صوت ؟

وعادت تستعرض حالات ساكني الفندق .

كلهم مرتاح مطمئن لا يفكر بصراخها ولكنها تستغيث .

ألا يدرون انها تستغيث أليس هناك من يسمع استغاثتها ؟

كان الماء ينساب داخل جسمها وبدأت أقدامها تتجمد وارتفع الصقيع الى ركبتيها فلم تعد قادرة على الـوقوف . ولكن اين تجلس ؟ .

السياج عال ولا قدرة لها على تسلقه . عادت تهز الباب محدثة جلجلة عالية ولكن كتفها الذي بـدأ يتجمد لم يعـد قادرا على هز الباب . تعبت يداها وعنقها وكل عضـلاتها ومفاصلها فوقفت باستسلام لا تدري ماذا تنتظر .

خرجت الى الغابة تهرب من الـوحشة ، خـرجت من الفندق تهرب من الوحشة . سافرت الى هـذا البلد تهرب من الوحشة فماذا جنت ؟ لم حدث كل هذا ؟ لم حدث .

وحين بدأت تحس بالتساقط كانت تتساءل هـل حدث هذا لأنها نسيت مفتاح الباب الحديدي ؟ أكل هذا لأنها لا تحمل مفتاح الباب الحديدي ؟ قبل ان تتساقط نهائياً كانت يداها تفتشان في جيوبها الخالية ، عن المفتاح السحري الذي يخلصها من مشكلة انغلاق الباب الحديدي ويفتح السياج .

1975

فهرس



تعال يا صغير ، قبِّل يد عمك . ويهرع الصغير ، وجلاً ، يلثم اليد المستعدة . وقبله ، هرع الأخ ، والأب ، والجد . يكبر الأخ .. ويشيخ الأب .. ويهرم الجد ، والأيادي تعودت اذلال اللثم .. والشفاه تعودت على ذل اللثم ، والصدور تغلف الحقد .

* * *

يعاملني بقسوة ! يحب غيري ! أكاد اختنق من الصمت ! (هس . لئلا يسمع الجيران .. ويتزوج غيرك .. وينفجر غضباً عليك) وتستيقظ الجارية تمرِّغ بدموعها قدمي سيدها ، وتتخضَّب الجارية وتتعطر ، تنتصر على الغير ، في الإغواء . تنحني شفتاها تلثمان يديه .. وترتاح .

* * *

ويبقى رجالنا أطفالاً يبطنون

ونساؤنا قطيع جوارٍ قدره سو

يحذرنا المثل القائل (اليد التي

قبِّلها وادع عليها بالكسر) .